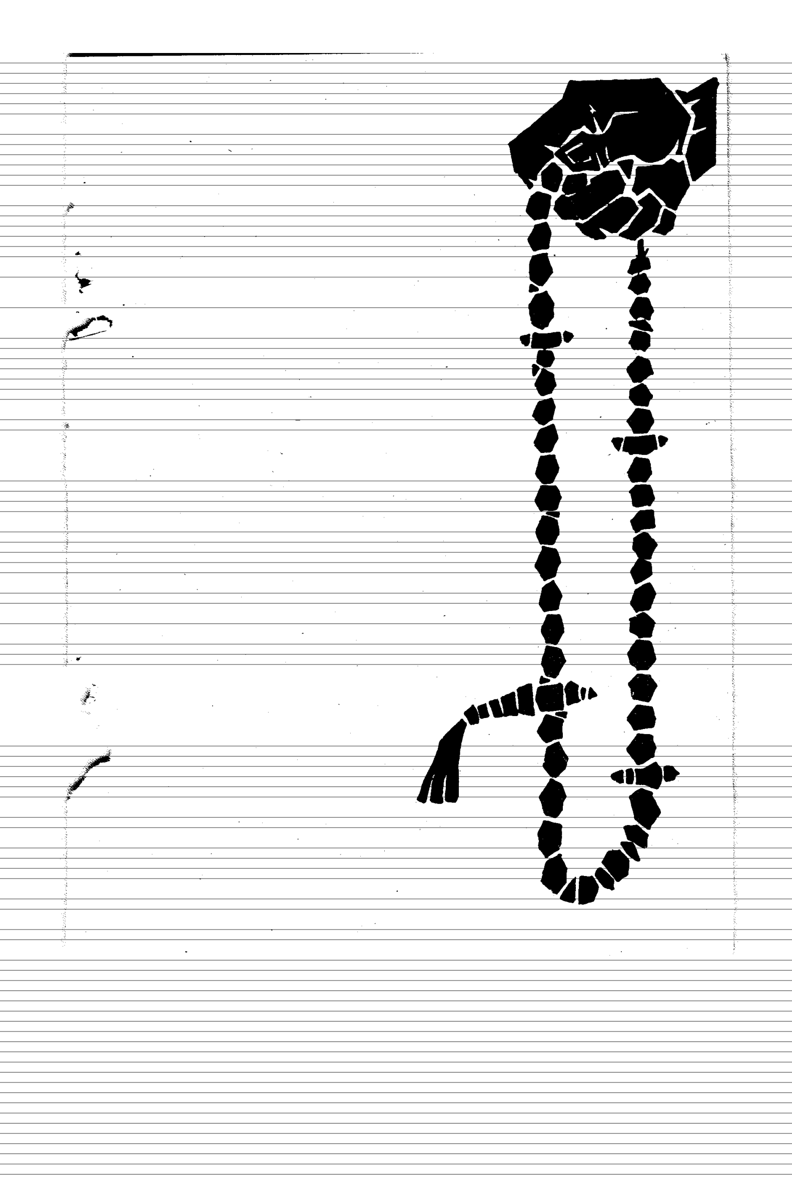


أغسطس ١٩٧٨

سلطان العلماء

عز الدين بن عبد السلام



محمود الشرقاوى

« ولتكن منكم أمة يدعـــون الى الخــــير
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم
المفلحون »

« صدق الله العظيم »



الغلاف والرسـوم الداخليـة
بريشة الفنـــان مامون

مقـــــــدمة

حفل التاريخ العربى برجال أفذاذ لم يستذلهم المنصب أو السلطان ولم يغرهم المال ، ولم تنل منهم رهبة الموت ، أو بريق السيف ، بل قالوا كلمة الحق ، قالوها عالية مدوية فى وجه الطغاة من الحكام والامراء، وبوقوفهم هذا الموقف الرائع استطاعوا أن يكسروا من حدة الجبروت ، وأن يردوا الظالم عن ظلمه ، وأن يبنوا بالمنطق والحجة ، مبلغ ما فى قولهم من صحة وسداد .

ولاشك أن شباب العالم العربى فى حاجة الى التعرف على مواقف البطولة الحقة التى وقفها عظماؤنا حتى يستقر فى نفوسهم التمسك بالحق والدفاع عن المبدأ السليم .

ان المبادىء والرسالات لا يمكن ان تنتشر وأن تسود الا بالدفاع عنها ، والتضحية فى سبيلها والنضال من

أجلها . وهذا يتطلب ايمانا عميقا ، واخلاصا مكينا ، وكفاحا رهيبا ، كهذا الكفاح الذى دفع رايته ، سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام .

نشأ هذا العالم العظيم فى عصر مضطرب ، اذ منى العالم الاسلامى فى القرون الثلاثة : الخامس والسادس والسابع الهجرى ، بسلسلة من الفتن الداخلية ، والحروب الخارجية . وأهمها حروب الصليبيين والتتار ، مما أدى الى تضعضع الكيان الاسلامى ، وانتشار الفساد فى المجتمع .. وأصاب المحيط العلمى رذاذ من ذلك الفساد والانهيار .. فصمت أكثر العلماء عن الجهر بالحق ، وسايروا الحاكمين رغبة أو رهبة ، واعتزل كثير منهم الحياة العامة تحت تأثير الدعوات الصوفية التى انتشرت فى جميع أرجاء العالم الاسلامى .

فى هذا الوسط ، نشأ عز الدين بن عبد السلام (٥٧٧ — ٦٦٠ هـ) ، فكان وجوده نسمة من نسمات الأمل العريض تهب على قلوب اليائسين ، وومضة من ومضات النور تضيء الطريق للمدلجين فى دياجير الظلام وسوطا من سياط الحق يلهب الله به ظهور الطغاة والظالمين ..

ان عز الدين بن عبد السلام من أعظم علماء الاسلام ، ذلك لأنه شخصية فذة ، قد آتاه الله من العظمة ما لم يؤت عالما غيره فى عصره ..

كان الشيخ داعية للتضحية والفداء ، فى العلم وفى الحرب ، يضرب المثل من نفسه فيعمل ، ويضرب المثل من منطقه فيقول :

« ان الجهاد ضربان ، ضرب بالجدل والبيان ، وضرب بالسيف والسنان ، وسلاح العالم علمه ولسانه كما أن سلاح الملك علمه وسنانه ، وكما لا يجوز للملوك

اغماد أسلحتهم لا يجوز للعلماء اغماد ألسنتهم ..
والمخاطرة بالنفوس مشروعة فى اعزاز الدين ، ولذلك
يجوز للبطل من المسلمين ان ينغمر فى صفوف المشركين،
وكذلك المخاطرة بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ،
ومن قال ان التغرير بالنفوس لا يجوز فقد بعد عن
الحق ، ونأى عن الصواب » .

ويحرص أصحاب القلوب السليمة والضمائر
المستقيمة على ان يبذلوا حتى حياتهم ونفوسهم فى سبيل
الله والحق ، فيقول :

« اننا نزعم أننا من جملة حزب الله ، وأنصار دينه،
وجنده وكل جندى لا يخاطر بنفسه فليس بجندى ».

وكذلك كانت حياته — كما سنرى — مصداق منطقه
ودعوته ..

ان كل قارىء معاصر يقرأ سيرة هذا الرجل العظيم
— الذى يستمد عظمته من حقائق الحياة الخالدة المتصلة
بخالق الكون والحياة — ينحنى له احتراما وتقديرا
واجلالا ..

انه مثل رائع للجرأة فى الحق ، والصلابة فى
الدين .. كان يجهر بالحق عاليا على منابر المساجد ،
أو فى محافل الملوك ، وقد كان يناديهم بأسمائهم
المجردة ، لا يخاف من بطش طاغية ، أو جبروت متكبر.

وكان عز الدين بن عبد السلام سياسيا نزيها قويا
معتزا بأمته حريصا على نفعها ، وعالما فاضلا خلع
قيود التقليد الاعمى من عنقه وعاد الى المنهل العذب
الذى لا ينضب ، والمتمثل فى الكتاب والسنة يستمده ..
وبلغ رتبة الاجتهاد الواعى المستنير ، وكان فقيها من
الشعب يحبه ويدافع عنه ، ويستلهم مصالحه فى تشريعه
وفتاواه .

ولقد صدق الشيخ جمال الدين الحصيرى ، شـيخ الحنفية فى عصره ، وهو يقول للملك الاشرف الذى عزل سلطان العلماء عز الدين بن عبد الســلام فى منصبه والزمه البيت :

((... هذا رجل لو كان فى الهند أو فى أقصى الدنيا، كان ينبغى للسلطان أن يسعى فى حلوله فى بلاده ، لتتم بركته عليه وعلى بلاده ويفخر به على سائر الملوك))

وبعد ...

فعلى الصفحات القادمة ..نلتقى بسيرة رجل عظيم، وعالم فاضل ، ومجاهد كبير ، وبطل من أبطال العروبة والاســـلام .

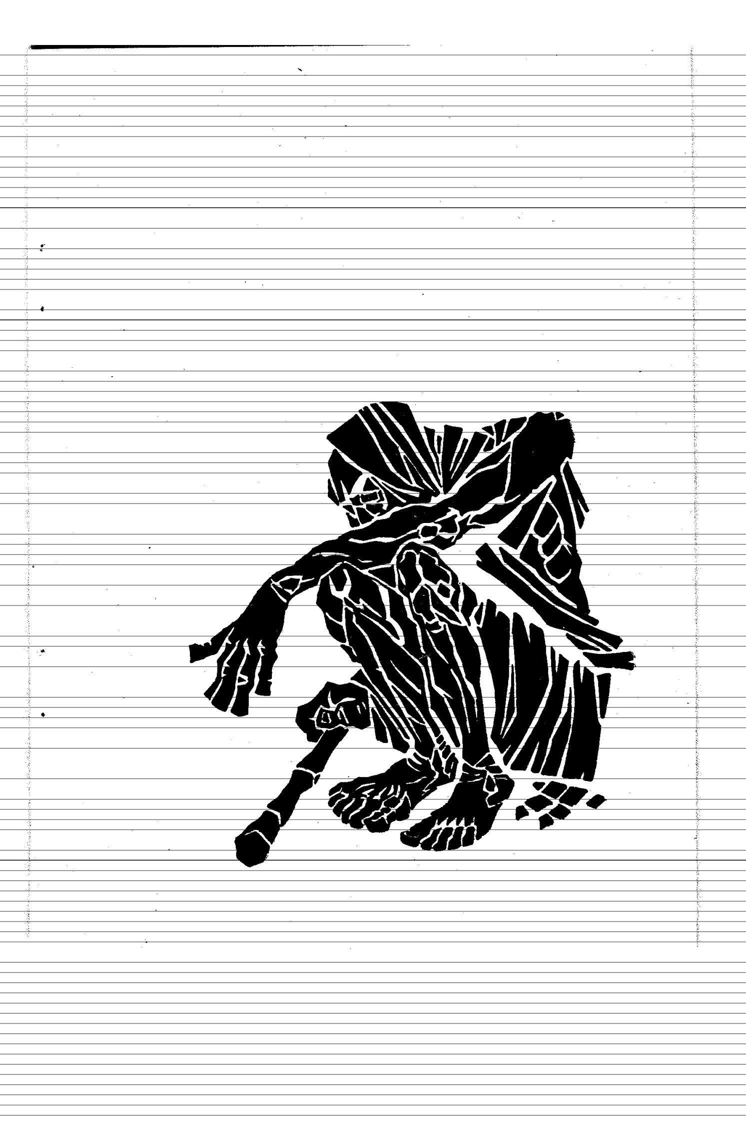
والله أسأل أن أكون قد وفقت فى هذه المحـــاولة المتواضعة الى رسم صورة صادقة واضحة القسمات لهذه الشخصية العربية العظيمة يتحقق بها الهدف الذى قصدت اليه .

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

محمـــود
عـــلى
الشرقاوى

الفصل الأول

صـــــــورة عصـــــــر



عاش الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى الفترة من خمسينيات القرن السادس الهجرى الى ستينيات القرن السابع · اذ ولد بدمشق عام ٥٧٧ هـ ، وعاش بها حتى هاجر الى مصر عام ٦٣٩ هـ وبها توفى عام ٦٦٠ هـ ·

ويجدر بنا ان نلقى نظرة فاحصة على النواحى « السياسية والاجتماعية والعقائدية والفكرية » لعصر الشيخ عز الدين ·· حتى يتحقق لنا وضوح الرؤية فى فهم شخصية هذا العالم الدينى الكبير ، وتحليل مواقفه الحاسمة امام جميع التحديات التى واجهته وهو يعمل جاهدا لاعلاء كلمة الحق والعدل ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، محاربا كل ضلالة وبدعة ·

الصورة السياسية :

هزم العالم الاسلامى أمام الاستعمار الغربى المتستر بالصليب ، وسقط بيت المقدس فى سنة ٤٩٢ هـ ، واتخذ من القدس رأس حربة توجه الى قلب العالم الاسلامى ، وكان من الطبيعى ان تمتد اطماع الدول الاستعمارية الى مصر باعتبارها قلب العالم الاسلامى ، وكان ذلك كله نذيرا بقرب نهاية الدولة الفاطمية التى عجزت عن صد موجة المد الاستعمارى · وانبعثت من الارض الاسلامية قوة جديدة جاءت فى صورة أمير الموصل عماد الدين زنكى ، الذى تمثل فيه رد الفعل الاسلامى فقام يتصدى للاستعمار الغربى ويجمع

شمل العالم الاســــــلامى المتمزق ، واعجلته المنية عن تحقيق هــــدفه ، بيد انه لم يمت ألا بعــد ان اخرج الى الدنيا ابنـــه نور الدين زنكى الذى اعاد الى الاذهان عصر كبار الصـحابة الامجاد ، من حيث التقوى والورع والعلم ، والاســـــتعداد للبذل والتضحية والاستشهاد فى ســــبيل الله العلى القدير ، فراح يعمل على توحيد العالم الاســــلامى ليقف صـفا واحدا متراصا فى مواجهة قوى الاســــــتعمار ٠٠ وانبت حماس نور الدين وايمانه القوى المتين ، صلاح الدين ، الذى بعث به الى مصر ليطهرها من حكم الفاطميين الواهن الذى جـر على العالم الاسلامى الهزيمة امام الاســتعمار الغربى بعد ما كان لهم من بلاء عظيم ضد امبراطورية الروم ، اذ انزلوا بها هزائم ساحقة ، واستردوا منها الكثير من اقطار الاسلام ٠

وأسقط صــــلاح الدين الدولة الفاطمية ، وأسس الدولة الايوبية ، ومات نور الدين بعد أن أسلم الشـعلة الى البطل العربى صلاح الدين ٠

وفى سنة ٥٨٣ هـ ، وبعد كفاح مرير ، ونضال رائع استرد صــلاح الدين بيت المقدس من الصليبيين وعاد المؤذن ينطلق بصوته مجلجلا : لا اله الا الله محمد رسول الله ٠٠ وارتفعت رايات الاســلام من جديد ٠

ادرك عــــز الدين فترة الدولة الايوبيـــــة التى تلت وفاة صلاح الدين الايوبى (سنة ٥٨٩ هـ) ، وما فيها من اضطراب كثير ، واستقرار قليل لاختلاف ابناء صلاح الدين وابناء اخيه العادل على الحكم فيما بينهم وتناحرهم المستمر ٠

تولى الحكم بعد صـــــلاح الدين ابنه الملك العزيز بمصر ، وساندة عمه الملك العادل ، وأراد العزيز أن ينشر ســــلطانه على بلاد الشام كما كانت ايام ابيه ، فهى منطقة شرقية للدولة الايوبية المشتملة على مصر والشــــام ، فعارضه اخوته فى الشام ، وارادوا ان يقتطعوا البلاد ويتقاســموها فيما بينهم ، وبقى الافضل والظاهر من ابناء صلاح الدين مسيطرين على

دمشق وغيرها من بلاد الشام الى ان جاء العزيز ومعه عمه الملك العادل واخضع معظم الشام لحكمه ·

وخلف على الحكم الملك العادل بعد موت العزيز ، وكان قويا مستقيما جادا ، فاستقرت الاحوال فترة حكمه فى الشام ، ولكنه مات سنة ٦١٥ هـ ، واختلف ابناؤه على الحكم واختص كل منهم بمنطقة خاصة ، فالملك الكامل استولى على مصر ، والاشرف على دمشق ، وعيسى وجواد سيطرا على بعض مدن الشام الاخرى ·

وكان الحكم فى مصر مستقرا نوعا ما ، اما الشام وبصورة خاصة دمشق ، فكانت مسرحا مستمرا للفتن والمنازعات ، وفوضى الحكم ·

وكان الناس يقاسون من الظلم ، ويكتوون بنيران هذه الفتن ، ويروى لنا المؤرخون عن حصارين لدمشق فى فترة اقل من عشر سنوات (بين ٦٢٦ ، ٦٣٥ هـ) وما ابتلى فيها أهل دمشق من شدة وغلاء فى المعيشة . وفقر ومسغبة وقلة طعام ، حتى اكل بعض الناس الجيفة والكلاب ··!

والاستعمار الغربى المتستر بالصليب متربص بالمسلمين ، والاحتكاك مستمر بينه وبين الدولة الاسلامية ، تارة فى سواحل الشام ، وأخرى على حدود مصر من ناحية النيل بدمياط . وتأتى بين هذا الاضطراب فترات استقرار تقصر أو تطول ، كفترة حكم الملك الأشرف فى دمشق من سنة ٦٢٦ هـ الى أن توفى سنة ٦٣٥ هـ ·

وعز الدين بن عبد السلام يرى هذا وذاك ــ وهو عالم يرنو الى العمل الصالح للمجتمع ــ ويتألم لهذا الواقع الفاسد ، وفوضى الحكم ، وانسداد باب الدعوة الى الحق ·

---

(١) راجع تراجم رجال القرنين السادس والسابع « لابى شامة المقدس لحوادث تلك الفترة »

ويترك الشيخ عز الدين دمشق فى سنة ٦٣٩ هـ تئن تحت وطأة حكم الصالح اسماعيل الذى تحالف مع أعداء الـدين والوطن ضد الصالح نجم الدين أيوب فى مصر ٠
ويهاجر الشـيخ الى القاهـرة لكى يواصـل منها أداء رسالته السامية ، ووجد من سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب كل رعاية وتقدير واحترام ٠

انتهت الدولة الأيوبية بمقتل الملك توران شاه سنة ٦٤٨ هـ على يد معز الـدين أيبك أحـد مماليك أبيه ، فى أعقـاب انتصارهم على الصليبيين عند المنصورة ٠

وبذلك طوى التاريخ صـفحة الدولة الأيوبية ، وبرزت للوجود دولة جديدة ، هى دولة المماليك البحرية فى مصر ، واستقرت ، بعد مراحل من القـلاقل والفتن والاضطراب ، على يد الملك الظاهر بيبرس الذى انتصر على التتار فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ محاربا فى جيش قطز ، ثم امتد سلطانه الى بلاد الشام ، وتوفى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ولم يمض على حكم بيبرس أكثر من سنة ونصف سنة ٠ فعاصر الشيخ عز الدين أواسط عهد الأيوبيين وأواخره ، ثم بداية دولة المـماليك ، وهى مسـتقرة قـوية ، واسـتتب لمؤسسها الأمر ٠

وعصره بالجمـلة عصر الفتن الداخليـة والخارجيـة ، تتخللها فترات هدوء وأمن واستقرار قد تقتصر وقد تطول ٠

فالفتن الداخلية هى ما أشرنا اليها من خلاف أبناء صلاح الدين ، ثم أولاد الملك العادل وتناحرهم على الملك والسلطان، وتقاسمهم الحكم على مناطق صغيرة ، من بلاد الشـام ، فعلى دمشق واحد ، وفى حمص وما حولها ثان ، وفى حلب ثالث وهـكذا ٠
وهذا الخلاف مزق الحـكومة القوية الموحدة التى تركها صـلاح الدين ، وأذهب ريحهم ، فزالوا من الوجود ليخلوا المكان لسلاطين المماليك الأقوياء ٠

وأما الفتن الخارجية : فأولها اندلاع الحروب الاستعمارية الغربية المتسترة بالصليب ، مرة أخرى بعد وفاة صلاح الدين فى سواحل الشـــام ، ونواحى مصر الشـــمالية لضعف خلفـــائه ٠

والفتنة الخارجية الثانية الكبرى هي زحف التتـار ، تلك الكارثة المدمرة للعالم عامة ، وللعالم الاسلامى خاصة ، فقد أزال التتار الخلافة الاسلامية من بغداد ، وعزموا على تدمير العالم الاسلامى الى أن هزمهم الجيش العربى فى معـــركة عين جالوت فى سنة ٦٥٨ هـ ٠

وللشيخ عز الدين بن عبد السلام من هذه الفتن الداخلية والخارجية مواقف ايجابية مشرفة ، ســنذكرها فى الفصل الخاص بهـــا ٠

الصورة الاجتماعية والعقائدية :

عاش الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى مجتمع متعــدد الأجناس ، فقد كان المجتمع فى مصر والشام يومئذ يمـــوج بكثير من الأجناس المختلفة ، بل المتباينة فى الطباع والعادات والتقاليد ، وفى فهم الحيـــاة ٠

وتمثلت هذه الأجناس فى الترك ، والعـــرب ، والفرنج ، والتتار « الذين وقعوا فى الأسر وأقاموا فى البلاد » والأرمن واليهود ٠ هؤلاء جميعا وآخرون غيرهم ، عاشـوا فى ظل مجتمع واحــد ، مما ولد الصراع الاجتمـــاعى ، وعـــدم الاســتقرار ٠ وكان لهذا أثر عميق فى الحيـــاة السياسية والفكرية حين ذاك ٠

وكان التوزيع الطبقى يجعل من الناس ثلاث طبقات :

(أ) الأمـــــراء :

وتتكون من السلطان والحكام الذين يبعث بهم لحـــــكم الأقاليم ، وجباية أموالها ، وتنظيمها ، وتنظيم الدفاع عنها ٠

وفى العصر الأيوبى كان جميع حكام الاقاليم من أبنـــاء الأسرة الأيوبية الذين جمعهم صــلاح الدين ، وحرص على شـد أزره بهم ، وزوج بنـــاتهم من أبنائهم صغارا ، ليزداد عددهم ، وليكونوا عونا له ٠

(ب) الشـــــعب :

وهم جمهـور الأمة وكانوا يقومون بمختلف الحـــرف ، والغالبية العظمى منهم تقيم فى الريف ، وتعمل فى الزراعة ، وأقلية منهم تشـــتغل بالصـــناعة أو غيرها من الفنـــون أو التجـــارة ٠

وكان العلماء المسلمون على رأس هـذه الطبقة ، واذ لم يلحقوا بطبقة الأمراء فانهم لم يكونوا أقل منها ثراء ، وربما فاقوها نفوذا وتأثيرا ، اذ كان العلماء على صـــلة وثيقة بالناس ٠

(ج) أهـل الذمة :

وهم اليهود والنصارى ٠ وكان أكثرهم يسـكن المـدن ، ان لم يكن كلهم ، وكانوا يقومون بالتجـــارة والصناعات الدقيقة ، وجباية الأموال ، وعلى خدمة السلاطين ٠

وكان النظـــام الســـــائد اقطاعيا ، على رأسه الأمير أو السيد ، الذى كان يحـكم باسم الســلطان ، ويجبى له الضرائب والخراج والجزية ٠

ومن الأموال الموردة من الاقطاعيات ، وزكاة الأمـوال ،

وغنائم الحرب ، وفـداء الاسرى وضرائب التجارة ، من كل هذه المصـــــادر كانت تتكون ميزانية الدولة التى كان ينفق أكثرها على شئون الحرب الدائرة ـ دون انقطاع ـ فى الأرض المقدسـة ٠

وقد كانت التجارة مصــدرا رئيسيا للتمويل ـ ولم تكن التجـــارة الداخلية ذات بال ـ اذ ظلت مصر تقــوم بدور الوسـيط بين موانىء الجمهوريات الايطـــالية وبعض دول الساحل الشمالى للبحر المتوسط ، وبلاد الروم ، وبين مختلف الامارات الاسلامية ٠

ولم ينقطع ورود المتاجر وتبادلها بسبب الحرب الا لفترة قصيرة ، فسرعان ما تخلت أهداف الحرب الصليبية عنها ، وظهر أصحاب المصالح ، وتحكم تجار « البندقية » و « جنوا » فى سيرها ٠ وقد هادنهم بعض سلاطين مصر وأعطوهم بعض الامتيازات فى نظير التخلى عن تمويل الحمـــلات الصليبية الموجهة الى الشرق ٠

وكان النظام الادارى للحكم يجعل السـلطان فى القمة ، ثم نائب السلطنة الذى يحكم باسم السلطان فى غيابه ، ثم الوزير الذى ينفذ قرارات السـلطان ، ومن بعد ذلك يوجد حـكام الأقاليم ، والقضاة الذين ينظرون فى المظالم ، وعلى رأســهم قاضى القضـــاة وكان مقره فى العاصمة القاهرة أو دمشـــق ٠

●●●

قلنا ان المجتمع متعـدد الأجنـــاس والطبقـات ، ولذلك صاحبته أديان وعقائد متباينة ، بل ان الدين الواحد كانت تتنازعه نحل ومذاهب عدة ٠

كان هنـاك المسلمون (أهل البلاد والكثرة الغالبة بطبيعة الحال) وأهل الذمة : اليهود والنصارى ٠

وكان المسلمون عـدة فرق من ناحية العقـائد الدينية ، ومن ثم تجلت الخـلافات المذهبية واحتـدمت المجـادلات والمناظرات ، وشـغل كثير من العلماء بالنظر فى العقائد وغيرها من امـور الـدين والمناقشة فيهـا ، وتعزيز الرأى الذى يذهبون اليه ٠

وكان مبعث هذا كله تلك النزعة الدينية الشائعة اذ ذاك ، فقد كان الوازع الدينى قويا ولاشك ، وانشغل المسلمون بهذه الخلافات المذهبية وكانوا يتعصبون ويتحزبون لهـذا المذهب أو ذاك خاصة مذهب الأشعرية أو مذهب الظاهر من الحنابلة المتعصبين ٠

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام أشعرى العقيـدة ، ومن ثم واجه فتنا كثيرة من الحنابلة المتعصبين ، واسـتطاع أن يفند أقوالهم ، ويرد على مفترياتهم ٠

ومع شـيوع هذه النزعة الدينية فى عصر عز الدين ابن عبد السلام ، ظهرت أقوى طريقة صـوفية فى زمنها وهى الطريقة « السهروردية » وأمامها الشـيخ شـهاب الدين السهروردى ، وقد اسـتهوت قلوب الناس ، واستطاعت أن تستميل قلب الشيخ عز الدين أيضـا حتى أنه بايع الشيخ شهاب الدين وهو فى دمشـق ٠

وظهـرت أيضـا فى مصر الطريقة الشاذلية وصاحبها الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، وقد التقى به ابن عبد السلام وصاحبه وانتفع كل منهما بعلم الآخر ومعرفته ٠

الصـورة العلمية :

كان عصر عز الدين بن عبد السـلام زاخرا بالعـلم والعلماء ، وبالانتـاج الكثير الضـخم فى جميع العلوم الانسـانية ٠

وكانت مصر والشام من مراكز الاشعاع الثقافى فى العالم الاسلامى ، ثم زادت أهميتهما فى هذه الناحية بعد زوال الخلافة فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وقيامها بعد ذلك فى القاهرة · فقد كان هذا سببا طبيعيا لهجرة جمهرة العلماء أو فرارهم من بغداد اليها والى دمشق ، أو الى غيرهما من مدن مصر والشام واستقرارهم فيها واتخاذها أوطانا لهم تكون مجال نشاطهم الفكرى وانتاجهم العلمى فى ضروبه العديدة المختلفة ·

وقد تعددت مراكز العلم فى مصر والشام ، وكان الجامع الأزهر من أهم مراكز العلم والمعرفة منذ قديم الزمان ؛ فقد أنشأه الفاطميون فى النصف الثانى من القرن الرابع ، ووقفوا عليه من الأملاك الدارة ما يضمن له البقاء على الزمن ، وما يهيىء المعيشة الكريمة لقاصديه من شتى البلاد والجهات ، وما ييسر لهم سبيل الدرس والبحث من الكتب والمراجع العلمية العديدة ·

وكان فى الاسكندرية جامع العطارين الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٧ هـ كما يذكر أبو المحاسن فى كتابه النجوم الزاهرة ، وكان هذا الجامع ينبوعا من ينابيع العلم والثقافة طوال عصر الحروب الصليبية وبعده ، كما كان حافلا دائما فى تلك الأيام بطلاب العلم وشيوخه الذين يقومون بالتدريس فيه ·

ونجد فى الشام جامعة المعدود فى طليعة معاهد العلم فيها ، والذى درس فيه طائفة من أعيان العلماء كابن عساكر، وعبد الغنى المقدسى ، وكلاهما من رجال الحديث ·

وقد ظهرت بعد ذلك مراكز أخرى للحياة العقلية والفكرية، وهى المدارس والمكتبات العامة · لم تعرف المدارس فى البلاد الاسلامية زمن الصحابة والتابعين ، بل لم تعرف حتى جاء القرن الخامس الهجرى · ويقول المؤرخ المقريزى ، ان

أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الاســـلام أهل نيسابور فبنيت بهـا المدرسة البيهقية ٠

ثم كان أشهر ما بنى فى القديم المدرسة النظامية ببغداد ، لأنها أول مدرسة قرر بهـا للفقهاء معاليم ، وتنسب الى أبى على الحسين الطوسى نظام الملك وزير ملك شاه أبى رسـلان السلجوقى ، وتم بناؤها سنة ٤٥٩ ، ودرس بها أبو اسـحاق الشيرازى وأبو حامد الغزالى وغيرهما من الاعلام ٠

واقتدى بنظام الملك الناس من حينئذ ، فى بلاد العــراق وخراسان وما وراء النهر ، وبلاد الجزيرة وديار بكر ٠

ومن أهم تلك المدارس تلك التى أنشـــأها صـــلاح الدين الأيوبى لتدريس الشافعية ، ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين فى بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر ، وبالبلاد الشامية والجزيرة ، أولاده وامراؤه ، ثم حذاحذوهم ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وامرائهم وأتباعهم (١) ٠

وكان يوقف على كل مدرسة ما يضمن لها البقاء ويهيىء لطلابها وشيوخها سبل المعيشة الطيبة ، ويلحق بهـا مكتبة تعينهم عـــلى البحث والـدرس والتزود من مختلف العلوم بخير زاد ٠

وقد بنى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى المدرسـة الفضلية سنة ٥٨٠ هـ ، وجعلها لطائفتى الفقهاء الشـافعية والمالكية ، ووقف بها ــ كما يقول المقريزى ــ جمـــلة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم يقـــال انهـــا كانت مائة ألف مجلـــد «١» ٠

والمدرسة الصالحية التى بناها الصالح نجم الدين أيـوب

---

(١) خطط المقريزى : ج ٢ ، ص ٣٦٣

(١) نفس المصدر : ص ٣٦٦ ٠

وجعلها لفقهاء المذاهب الأربعة ، اذ رتب لكل أصحاب مذهب درسا فيها ٠

وقد تم المزج بين علم الدين وعمل الدنيا فى ذلك العصر على صورة باهرة ، وكان الأمراء أنفسهم مثلا طيبا لذلك ، فيروى عن صلاح الدين الأيوبى أنه كان كثير الحضور لمجالس العلم ، وأنه كان يتلقى دروس الحديث من القاضى بهاء الدين ابن شداد حتى وهو فى ميدان القتال !!

كما يروى عن الكامل أنه نال اجازات علمية عن جدارة واستحقاق ، وأنه كتب تعليقا على صحيح مسلم ، كما انه كان حريصا على عقد ندوة فى بيته كل خميس يحضرها العلماء ٠

ويروى عن المعظم عيسى أنه ألف كتابا فى الفقه الحنفى ، وأنه شجع علماء الحنفية على استخراج المسائل التى خالف فيها أبا حنيفة أصحابه ٠ وكان نتيجة هذا التشجيع ميلاد كتاب ضخم فى الفقه الحنفى هو « التذكرة » ٠

وقد استظهره المعظم عيسى وأكبره ، كما انه كان يرصد الجوائز المالية لمن يجيد فنا من فنون اللغة أو الدين ٠

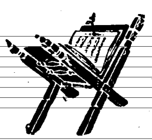
وقد شهد عصر الدولة الأيوبية من علماء الدين الأجلاء عددا كبيرا بلغ درجة الامامة فمن علماء هذا العصر ٠

القاضى بهاء الدين بن شداد ، وسبط بن الجوزى ، ومحمد القاسم بن الحافظ الكبير على بن عساكر ، وعبد اللطيف البغدادى ، والامام فخر الدين بن عساكر ، والآمدى ، وجمال الدين بن الحرستانى قاضى قضاة دمشق ، وعزالدين ابن عبد السلام سلطان العلماء ، وابن وفيق العيد ٠٠ وغيرهم ٠

لم يتخلف هؤلاء العلماء عن المشاركة فى الحياة العامة ، فضربوا أروع الأمثال لما يجب أن يكون عليه العالم الحق ٠ فلم يلزموا الصوامع ، ولم تستهلك حياتهم الكتب والنظريات،

وانما ألقوا بأنفسهم فى غمار الحيـــاة العامة : السياسية والاجتماعية ، فأثروا فيها وتأثروا بها ۰۰۰ فكانت هـــذه الحركة العلمية الرائعة وليدة هذا الاحتكاك ۰

وقد نشأ عز الدين بن عبد السلام فى هذا الوسط الزاخر بالعلم والمعرفة ، وتتلمذ على كبار مشايخ عصره ، وأقبل على العلم فكان أعلم أهل زمانه ۰



الفصـــل الثانى

ســيرته وحيـــاته



أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ابن أبى القاسم بن الحسن بن المهذب السلمي الدمشقي الشافعي «١» . الملقب بسلطان العلماء والمشتهر بالعز ابن عبد السلام . والسلمى نسبة الى بنى سليم ، احدى القبائل المشهورة من قبائل مضر .

وقد اتفقت كل المراجع التى كتبت عنه على أنه ولد فى دمشق ، ولكنها اختلفت فى سنة ولادته بين سبع وسبعين ، وثمان وسبعين وخمسمائة هجرية . واذا أصحت رواية السبكى الذى نص على أنه عاش ثلاثا وثمانين سنة «٢» والتى أيدها ابن‌تغردى‌بردى«٣» ، جاز لنا أن نقول أنه ولد فى سنة ٥٧٧ هـ فى حوالى ربيع الآخر منها «٤» .

نشأ عز الدين وتربى فى دمشق حتى شب عن الطوق ، ولا نعرف شيئا عن طفولته ونشأته كيف كانت ، الا أننا نستطيع القول بأنه لم تتيسر له أسباب التعليم والدراسة فى هذه الفترة من عمره ، استنادا الى رواية السبكى عن بداية تعلمه ، وسنذكرها فيما بعد .

---

(١) تاريخ علماء بغداد : ص ١٠٤

(٢) طبقات الشافعية الكبرى : جـ٥ ، ص ١٠٢

(٣) النجوم الزاهرة : جـ ٧ ، ص ٢٠٨

(٤) رضوان الندوى : العز بن عبد السلام ص ٣٥

ويمكننا القطع بأنه نشأ نشأة قوية مؤمنة صـــــالحة ، وأصدق دليل على ذلك ما ذكره الســـبكى من أن عز الدين كان فى مطلع شبابه يبيت فى الكلاسة (زاوية الباب الشمالى لجامع دمشق) وتصادف أن احتلم فى ليلة شديدة البرودة ، وعندما تيقظ وتنبه لأثر ما حدث له لم ينتظر الى الصباح بل قام مسرعا ونزل فى بركة الكلاسة ، « فحصل له ألم شـديد من البرد وعاد فنام ، فاحتلم ثانيا ، فعاد الى البركة ، لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لا يمكنه الخـروج فطلع ، فأغمى عليه من شدة البرد ، ثم ســـمع النداء فى المرة الأخيرة : يا ابن عبد السلام أتريد العلم أم العمل ؟. فقال الشـــيخ عز الدين : العـــلم ، لأنه يهدى الى العمل ، فأصبح وأخذ التنبيه «١» فحفظه فى مدة يسـيرة ، وأقبل على العلم فكان أعلم أهل زمانه ، ومن أعبد خلق الله تعالى .

واذا أمعنا الفكـــر فى ذلك النص الوحيد الذى ورد عن بداية اشتغال عز الدين بالعلم فاننا لا نملك الا أن نتشـــكك فى حقيقة هذا النداء الذى سمعه ، وهل هو من الخارج أم من داخل نفس عز الدين ؟.

وقد ناقش الاستاذ رضـــوان الندوى «٢» هـــذا النص ورأى أن هذه الحادثة غير عادية وكأنما حرص راويها على أن ينسبها فى شكل يجعل عز الدين وقد نالته بركة من بركات الله عز وجل ... ثم يقــول :

« فمع عدم استرسالنا فى الأخذ بمثل تلك الروايات ، نرى أنه ليس بعيدا عن الواقع ، فان الله القدير المتصرف المنان ، الذى يخلص له عبده ، ويتفانى فى تقـــديم أصـــدق آيات العبودية وأشدها على النفس اليه ، ليس بعزيز على هـــذا

---

(١) متن متداول فى الفقه الشافعى.
(٢) كتاب العز بن عبد السلام : ص ٥٣

القادر الكريم أن يهب عبده هذا المخلص المطيع ما يشاء من مواهب وطاقات ، « وله مقاليد السموات والأرض » • » •
ولكننا نرى «١» – « مع ايماننا بامكان حدوث ما ارتآه الاستاذ الندوى – أن عز الدين لم يسمع الا صوت نفسه ، ولم يستجب فى الصباح الا لدافع قوى من روحه المتشبعة بالعلم ، المحبة بفطرتها للتدين • والذى نريد أن نقوله هنا هو أن عز الدين لم يشتغل بالعلم بطريقة فجائية • لم تنبت أشجاره فى أرض جرداء وانما هو – وان لم ينقطع لطلب العلم قبل هذا النداء الداخلى – قد شغل به كثيرا ، وفكر فيه طويلا، وأدرك منه أطرافا ووعى من مسائله أشياء وأشياء • يدل على ذلك هذا النص نفسه ، والذى يتخذ وسيلة لاثبات عكس ما نراه •
« فالشاب الذى يتحرج من الاستسلام الى دفء الفراش فى ليلة قارصة البرد لاشك يعرف قيمة عمله هذا • ان مبادرته الى التطهر عقب أكتشاف الأثر لدليل على وعى عميق وادراك سليم لمعنى الصلة بالله ، على أن للمسألة وجها آخر وهو أن المرء الذى يحتلم ثلاث مرات متتاليات ما أظنه فى ذلك الوقت بصالح لاستقبال نداء السماء • ثم تلك الاجابة الواعية التى لا يمكن أن تصدر الا بعد روية وتمهل ، ولا تصدر الا عن فكر مدرب يعرف قيمة الكلمات ويضعها موضعها :

– « أتريد العلم أم العمل » ؟
– « العلم لأنه يهدى الى العمل » •

فأى قوة مذخورة بدت فى تلك الكلمات ؟ وأى صدق نفسى نلمسه فيها !؟ ان حياة عز الدين كلها الا تطبيقا لهذا الشعار الصادق •• العلم الذى يهدى الى العمل •
درس الشيخ عز الدين العلوم العربية والدينية بمختلف

---

(١) محمد حسن عبد الله : عز الدين بن عبد السلام ص ٥٢ – ٥٤

فنونها من نحو وبلاغة ، وحديث وفقه واصول على كبـــار اساتذة عصره ، وائمة العلم ·
قال ابن العمار الحنبلى :
« برع فى الفقه والاصول والعربية وجمع بين فنون العلم فى التفسير والحديث والفقه (١) »
وجاء فى كتاب النجوم الزاهرة نقلا عن الذهبى انه قال :
« وتفقه على الامام فخر الدين بن عساكر وقرأ الأصـــول والعربية »
تلقى عز الدين بن عبد السلام العلم عن كبار العلمــــــاء مثل الحافظ أبى محمد القاسم بن الحافظ الكبير بن عساكر ، الذى أخذ عنه الحديث فى دمشق . كما درس الفقه الشافعى على الشيخ الامام فخر الدين بن عساكر ، كما أنه قرأ الاصول على الشيخ سيف الدين الآمدى ، كما حضر على شـــــيوخ آخرين مثل الشيخ عبد اللطيف البغدادى ، وبركات بن ابراهيم الخشرعى ، والقاضى جمال الدين بن الحرستانى .

وفى سنة ٥٩٧ هـ سافر الى بغداد فى طلب العلم ايضـــا ، فسمع الحديث بها من أبى حفص عمر بن طبرزد ، وحنبل بن عبد الله الرصـــافى ، ولم يمكث بهـــا طويـلا وعاد الى دمشق «٢» ؟ وبعد ان اكتملت ثقـــافة عز الدين ، اتجه الى ميادين الخدمة العامة ، عاملا على خدمة الاسلام وجمهـور المسلمين ، أداء لواجب دينه وعلمه ·
وقد تنوعت خدمات الشيخ من تدريس ، وخطابة ، وقضاء وافتاء ، وتأليف ... وفيما يلى بيان هذه الوظائف وأماكنها :
اولا : مناصـــــبه فى دمشق :
شغل الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى دمشق عـــدة مناصــــــب هى :

---

(١) شذرات الذهب : جـ ٥ ، ص ٣٠٢
(٢) تاريخ علماء بغداد : ص ١٠٦

١ ـ التـــــدريس :

فقد ذكر العماد الحنبلى أن الشيخ عز الدين قد « رحل اليه الطلبة من سائر البلاد » وفى كتاب النجوم الزاهرة نقلا عن الذهبى أن الشيخ عز الدين قد « قصـــده الطلبة من الآفاق وتخرج به أئمة .. ودرس بعدة بلاد » .

ويقول السبكى أنه درس أول الأمر فى دمشـــق بالزاوية الغزالية ، وهى ركن من أركان المسجد الاموى ينســب الى الامام الغزالى لاعتكافه به حين أقام بدمشق . كما أنه درس فى المدرسة الشبلية البرانية أيضا . « أما فترة تدريسه بهمـا على التحديد فلا نعرف الا عن الاولى « الغـــزالية » . باشر عز الدين التدريس بها من جمادى الاولى سنة ٦٣٥ هـ ، وليه من قبل الملك الكامل ، بعد وفاة جمال الدين الدولعى . ولعله بدأ التدريس أولا فى المدرسة الشبلية البرانيـــة أيام الملك الأشرف ، ثم لما تملك الكامل ـ وكان يحب ويكرم عز الدين ـ دمشق عهد اليه وظيفة التدريس بالغزالية .

ونستأنس فى ذلك بان كان عمر الشيخ عندما قام بوظيفة التدريس بالغزالية ٥٢ سنة ، ويستبعد أن يبقى الى هـــذا السن المتأخر بدون أن يدرس ويفيد ، ونضج علمـــه واكتمـــل (١) .

٢ ـ الافتــــــاء :

عرف الشيخ عز الدين بمفتى الشام ، ولم يكن للافتاء منصب رسمى ، وانما مارس الشيخ الافتاء ، أداء الرسالة العلم ، وخدمة لجمهور المسلمين ، وظل قائما به بدافع من نفسه وتقاه طوال بقائه فى الشام ، ثم فى مصر .

---

(١) رضوان الندوى : العز بن عبد السلام ، ص ٣٩

وقد جاوزت شهرته فيه بلاد الشام وقصد بالفتاوى من الآفاق «١» . ويؤيد ذلك قصد أهل الموصل له بالاستفتاء حتى جمع فى ذلك مجموعة تعرف باسم « الفتاوى الموصلية » .

ونص الذهبى على ميزته فى الافتاء فقال : « وله الفتاوى السديدة » (٢) .

٣ ـ الخطابة :

ليس من شك أن منصب الخطابة فى الجامع الاموى بدمشق كان منصبا عظيما فى عصر الشيخ عز الدين عبدالسلام ولم يكن يتولى هذا المنصب الا كبار علماء هذا العصر .

وقد تولى عز الدين خطابة الجامع الاموى قبل الملك الصالح اسماعيل فى ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ . وقد أحال الشيخ هذا الجامع الى مركز اشعاع اسلامى يصون للاسلام كرامته . واتخذ من المنبر مذياعا ينطق بكلمة الحق والعدل » لايخاف لومة لائم ، واخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحارب كل بدعة وضلالة .

قال الكتبى :

ـ « وكان أمارا بالمعروف ، نهاء عن المنكر ، لا يخاف فى الله لومة لائم » (٣) .

وقال ابن العماد الحنبلى :

ـ « ... وهذا مع الزهد والورع ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر » (٤) .

وقال السبكى :

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : ج ١٣ ، ص ٢٣٥

(٢) ابن التغردى بردى عنه فى النجوم الزاهرة : ج ٧ ، ص ٢٠٨

(٣) فوات الوفيات : ج ١ ، ص٥٩٥

(٤) شذرات الذهب : ج ٥ ، ص ٣٠٢

— « ... القائم بالامر بالمعروف ، والنهى عن المنـــكر فى زمانه » (١) .

ولم يدم هذا المنصب للشيخ طويلا ، اذ عـــــزل منه فى سنة ٦٣٨ هـ ، أثر خلاف نشأ بينه وبين السلطان المذكور فى حادثة الخيانة السياسية المشهورة التى انتقده فيها الشيخ عز الدين ، لانه لم يرض أن تدنس قدســــية منبر الجامع التى أرساها الرســـول صلى الله عليه وســـلم ، بالمداهنة والسكوت ، فكان جزاؤه أن عزل وحبس » (٢) .

وقد أبطل أثناء اشتغاله بالخطابة كثيرا من العادات الزائفة يقول المؤرخ ابن الحنبلى :

— « وقد ولى الخطابة بدمشـــــق ، فأزال كثيرا من بدع الخطباء ، ولم يلبس سوادا ، ولا سجع خطبته ، كان يقولها مترسلا ، واجتنب الثناء على الملوك ، بل كان يدعـــو ا ، وأبطل صلاة الرغائب ، والنصف (٣) — صـــــلاة نصـــف شـــــعبان .

كان الشيخ عز الدين فى محاربته هذه العادات الزائفة ، والضلالات يستند الى شريعة القرآن وسنة الرسول صـــلى الله عليه وسلم ، وكان لا يخاف اعتراض أحد المبتدعين ، ومن ثم كان يدور بينه وبينهم حوار ، ومناقشات ، كانت كلهـــا تنتهى بترجيح كفة الشيخ عز الدين ، وهى — بلا شـــك — كفة الحق .

فمثلا عندما أنكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام صـــــلاة الرغائب والنصف من شعبان ، وقام بابطالهما ، « وقع بينه وبين شيخ دار الحديث الامام أبى عمرو بن الصـــــلاح رحمه الله فى ذلك منازعات ومحاربات شديدات ، وصنف كل واحد

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : جـ ٥ ، ص ٨١

(٢) انظر الحادثة بالتفصـــيل فى فصل مواقفه الحاسمة فيما يأتى .

(٣) شذرات الذهب : جـ ٥ ، ص ٣٠٢

منهما فى الرد على الآخر ، واستصوب المتشرعون المتحققون مذهب الامام ابن عبد السلام فى ذلك ، وشهدوا له بالبروز بالحق ، والصواب فى تلك الحروب (١) »

٤ ــ القضــــاء :

ولى الشيخ عز الدين منصب القضاء فى دمشق من قبــل السلطان الكامل سنة ٦٣٥ هـ . ولم يدم ابن عبد السلام فى هذا المنصب طويلا ، اذ تركه فى نفس العام عندما تولى الحكم الصــالح اســـماعيل الذى لم يكن على وفاق مع الشــــيخ عز الدين .

ثانيا : فى مصر :

عندما تحزب الامر بين الشيخ عز الدين والصالح اسماعيل قصد عز الدين بيت المقدس ، ومن هناك أخذ سبيله الى مصر وكان ذلك فى سنة ٦٣٩ هـ (٢) . وقد أربى الرجل على الستين

واستقبله السلطان نجم الدين ايوب استقبالا حافلا ، وعهد اليه عدة مناصب ، على التفصيل الآتى :

١ ــ الخطـــــــابة :

بعد وصول الشيخ عز الدين مباشرة ، ولاه الصالح نجم الدين خطابة جامع مصر « جامع عمرو بن العاص » . وجمع له مع الخطابة منصبا آخر يصح أن نطلق عليه « دير عمــارة المساجد » فى تعبيرنا الحديث ، اذ قال السبكى بعد ذكــر ولايته الخطابة :

---

(١) مراة الجنان وعبرة اليقظان : جـ ٤ ص ١٥٥

(٢) ابو شامة المقدس : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص ١٧١

« وفوض اليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة ».
وقد ظل فى هذا المنصب الى مدة لم يعينها أكثر المؤرخين ، وان ذكر بعضهم انه عزل منها حين قبل السلطان عزله لنفسه من القضاء . فيكون — اذا صح هذا القول — قد بقى فى الخطابة عاما واحدا .

٢ — قاضى القضاة :

وقد شغل هذا المنصب عقب قدومه الى مصر أيضا .
« وتولى القضاء فى ١٠ جمادى الاولى سنة ٦٣٩ ﻫ اثر وروده الى القاهرة ، وبعد وفاة قاضى القضاة شرف الدين بن عين الدولة (١) » .
وكان صلبا فى حكمه وقضائه وجريئا فى التنفيذ . لم يخضع فى قضائه الا للحق . وكان العدل أساس احكامه . لم يترك فرصة لاهل الهوى لكى يتدخلوا فى تغيير مجرى العدالة ، مما اضطره كثيرا ان يجابه الاخطار ويتعرض للاذى .
وقد جرت له حادثتان — وهو فى القضاء — اضطرتاه الى الاستقالة كل مرة انتصارا للحق والعدل ، واشار الى هذا السبكى فقال :

« ثم عزل نفسه عن الحكم ، فتلطف السلطان فى رده اليه، فباشره مدة ، ثم عزل نفسه مرة ثانية ، وتلطف مع السلطان فى امضاء عزله بنفسه ، فأمضاه . وابقى جميع نوابه من الحكام » . وقد اغفلت المراجع سبب الاستقالة الاولى وان ذكرت سبب الثانية التى لم يعد بعدها للقضاء . وهى الحادثة المشهورة التى ارتكبها معين الدين حسن استاذ الدار الذى بنى « طبل خانة » للهو والغناء فوق سقف احد المساجد ! وامام هذا الاستهتار المشين ببيوت الله لم يملك الشيخ عز

(١) رضوان الندوى : العز بن عبد السلام ص ٤٤

الدين الا أن يحكم بهدم البناء ، واسقاط أهلية الوزير للشهادة وعزل نفسه عن القضاء (١) .. وهنا قبلها السلطان .

أما المرة الاولى — وهى الاستقالة المرفوضة التى أغفلت المراجع ذكر سببها ، فنرجح أنها بسبب ما تعرض له القضاء من تدخل السلطان فى الحادثة المعروفة بـ « بيع أمراء الدولة المماليك » ، ومحاولة رد حكيم الشيخ عز الدين فيهم مما حمله على مغادرة القاهرة غاضبا الى الشام . وقد تلطف السلطان معه فى رده عن مغادرة المدينة ، وفى اعادته لمنصبه وامضاء حكمه .

أما بالنسبة لقبول استقالته فى حادث « الطبل خانة » فيذكر الكتبى أنه قيل لنجم الدين فى تلك المناسبة : « اعزله عن الخطابة والا تشنع عليك على المنبر كما فعل فى دمشق فعزله »

ونحن نميل الى اعتماد ما ذكره الكتبى من تعليل ، وهو أن السلطان راجع نفسه ، ولعله ندم لاسناد هذه المناصب التى تتصل بالرأى العام لجمهور جماعة المسلمين اتصالا مباشرا لرجل قوى نزيه مثل عز الدين بن عبد السلام . فحمد له هذه الفرصة التى أتاحها له ، وقبل استقالته ، وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ٦٤٠ هـ .

فارق القضاء ، وهو يشار اليه بالبنان لعدله فى الحكم ومساواته بين الناس فى القضاء ، وقال فيه الشيخ أبو الحسين بن عبد العزيز الجزار :

سار عبد العزيز فى الحكم سيرا
لم يسره سوى ابن عبد العزيز
عمنا حكمه بعدل وسيط
شامل للورى ، ولفظ وجيز (٢)

---

(١) المقريزى : السلوك ، القسم الثانى جـ ١ ، ص ٣١٢

(٢) فوات الوفيات : جـ ١ ، ص ٥٩٥

٣ ــ التـــدريس :

تولى عز الدين التدريس فى المدرسة الصـــالحية المعروفة بين القصرين فى القاهرة ، وقد بناها السلطان الصالح نجـم الدين ايوب فى سنة ٦٣٩ هـ . وانشأ فيها لاول مرة أربعـــة دروس لتدريس الفقه على المذاهب الاربعة .

وقد عهد السلطان الى الشيخ عز الدين تدريس الفقـــه الشافعى بهذه المدرسة بعد أن قـــدم الشـيخ استقالته من منصب قاضى القضاة .

وظل عز الدين يدرس بها الى أن توفى . حكى صاحب فوات الوفيات : « وارسل له السلطان « الظاهر بيبرس » لما مرض وقال :

ــ عين مناصبك لمن تريد من اولادك .

فقـــال :

ــ ما فيهم من يصلح وهذه المدرسة للقاضى تاج الدين ابن بنت الاعز . (٢)

ولم يقتصر نشاط الشيخ عز الدين على القيام بوظيفـــة التدريس الرسمية فحسب ، بل ظل يقوم برسالة العـــلم فى ميادين أخرى حرة ، من القاء دروس فى بيته ، وافتاء وتأليف.

ومما يذكر من مميزاته فى التدريس أنه أول استاذ أو معلم بدأ بالقاء دروس فى التفسير .

قال ابن العماد الحنبلى :

« واخذ التفسير فى دروسه ، وهو أول من أخـــذه فى الدروس (٣) .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٦٣

(٢) فوات الوفيات : ج ١ ، ص ٥٩٥

(٣) شذرات الذهب : جـ ٥ ، ص ٣٠٢

وكذلك نوه به السيوطى قائلا : « والقى التفسير بمصر دروسا » (١)

ومما لا شك فيه ان تلك الكثرة الوافرة من المؤلفات فى مواضيع شتى من فقه ، واصول وفتاوى ، وتصوف ، وتفسير ونحوها التى تركها لنا ، قد الفها فى هذه الفترة من عمره وقد قضى ستة عقود من عمره ، ولقد نضج ذهنه ، وغزر علمه ، واتسع أفقه .

٤ — الافتاء :

سبق ان ذكرنا قيامه بالافتاء فى دمشق ، وما حظى به من تمكن وشهرة حتى قصد من الآفاق . ولم يتخل الشيخ عز الدين عن رسالته فى مصر اذ ظل يفتى الناس الى آخر ايام عمره . وقد جمع فتاواه فى كتاب اسماه « **الفتاوى المصرية** » .

وعندما قدم الى مصر كانت شهرته قد سبقته اليها ، وقد اعترف به علماء مصر استاذا أول لهم حتى قال الشيخ عبد العظيم المنذرى أشهر علماء مصر وحفاظها ومفتيها فى ذلك العهد .

« كنا نفتى قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه » (٢) .

وفاته وعمره :

بعد عمر مديد فى خدمة الدين والعلم والامة الاسلامية ، وحماية حقوقها وتقاليدها من المضللين والمبتدعين اغمض

---

(١) حسن المحاضرة : جـ ٢ ، ص ١٧٢
(٢) طبقات الشافعية : جـ ٥ ، ص ٨١

الشيخ عز الدين بن عبد السلام عيناه وقد انتهت حياته الدنيا . وقد ذكر الشيخ عبد اللطيف بن عز الدين في رواية عنه أن وفاة والده كانت بالمدرسة الصالحية بالقاهرة يوم السبت قبيل العصر التاسع من جمادى الاولى سنة ستين وستمائة هجرية . وقد نقل السبكى هذا القول ذاته منسوبا الى صاحبه ، ولكنه ناقض نفسه بعد قليل ، انه ذكر أن وفاة الشيخ كانت فى العاشر من جمادى الاولى (١) ، وهذا القول الاخير هو ما عليه عامة المؤرخين .

والمخرج سهل ، ونجده فى رواية ابن رافع السلامى الذى قال نقلا عن الحافظ الدمياطى « تلميذ الشيخ » :

« وتوفى يوم السبت تاسع جمادى الاولى سنة ٦٦٠ هـ ، ودفن فى الغد بسفح المقطم ، حضرت ذلك (٢) ·

وكان من نتيجة الاختلاف فى سنة ميلاده ان يقع الاختلاف ذاته فى عمره عند وفاته ، وهو يتردد بين ٨٢ سنة و ٨٣ سنة وقد قرر السبكى انه عمر ثلاثا وثمانين سنة ، وايد ذلك برواية طريفة نقلها عن عز الدين . قال السبكى :

« حكى ان شخصا جاءه (عز الدين) وقال له :

ــ رأيتك فى النوم تنشد :

وكنت كذى رجلين ، رجل صحيحة
ورجل رمى فيها الزمان ، فشلت

فسكت ساعة ، ثم قال :

ــ « اعيش من العمر ثلاثا وثمانين سنة ، فان هذا الشعر لكثير عزة ، ولا نسبة بينى وبينه غير السن ، أنا سنى وهو شيعى ، وأنا لست بقصير وهو قصير ، ولست بشاعر

---

(١) نفس المصدر : ص ١٠٢
(٢) رضوان الندوى : العز بن عبد السلام ، ص ٥١

وهو شاعر ، وانا سلمى وهو ليس بسلمى ، لكنه عاش هذا القـــدر » (١) .

ثم عقب السبكى قائلا : « فكان الامر كما قال رحمـــــــه الله » .

وقد تلقى شعب مصر وشعب الشـــام نبأ وفاة الشـــيخ بالاسى والحزن العميق ، وودعه شعب مصر باكبار واجـــلال بليق به ، وقد سار فى جنازته سلطان مصر والشام الظـــاهر بيبرس وحمل نعشه وصلى عليه وحضر دفنه .

نقل السبكى عن شرف الدين ابن الشيخ عز الدين عنـــد ذكر وفاته :

« فحزن » بيبرس عليه كثيرا ، حتى قال :

ــ لا اله الا الله ، ما اتفقت وفاة الشيخ الا فى دولتى »

وشيع امراءه ، وخاصته واجناده لتشييع جنازته ، وحمل نعشه ، وحضر دفنه » وعندما علم اهل دمشق بوفاة الشيخ عز الدين حزنوا واخذوا يترحمـــــون عليه ، ويدعون له ، ويقيمون له العزاء . فصلى عليه فى الجامع الاموى ، وجوامع دمشق الاخرى ، وعملوا عزاءه « بجامع التوبة » .

يقول ابو شامة :

« وعمل عزاؤه بجامع العقيبة .. وهو اسمه القديم .. يوم الاثنين ٢٥ جمادى الاول ونادى النصير المؤذن بعد الفراغ من صلاة الجمعة :

ــ « الصلاة على الفقيه الامام شيخ الاسلام عز الدين بن عبد الســـــــــلام » (١) .

---

(١) طبقات الشافعية ، جـ ٥ ، ص ١٠٢

(٢) ابو شامة المقدس : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص ٢١٦

الفصـــل الثالث

شـــخصيته العلمية



كان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام واسع الثقافة ، ثاقب الفكر ، وقد ظهر ذلك فى مؤلفاته الكثيرة العميقة ، التى تشع بروح الاستقلال الفكرى النزيه ، وفى اقبـال الطلبة عليه ينهلون من علمه ، وفى المناصب الخطـيرة التى تولاها فوفاها حقها فى أحرج الاوقات .

وقد كان الشيخ مفكرا متحــررا لا يستعبده التقليد ولا يقوده المذهب ولا يتحكم فيه التعصب .

قال السيوطى :

« ثم كان فى آخر عمره لا يتعبد بالمذهب ، بل اتسع نطاقه، وافتى بما أدى اليه اجتهاده » (١) وعندما ناقشه الملك الاشرف ابان فتنة الحنابلة نازله عز الدين منازلة العالم المتمكن ، وقد أراد الاشرف أن يعرض به زاعما أن رأيه يخــرج عن آراء أصحاب المذاهب الاربعة فهل أنشأ عز الدين مذهبا خامسا ؟ ولم يتجاهل الشيخ هذا الغمز ، فكان مما كتب للســلطان الاشرف : « أما ما ذكر من أمر الاجتهاد والمذهب الخـامس فأصول الدين ليس فيها مذهب فان الاصل واحد والخلاف فى الفروع » . وهذا هو الفهم الصحيح للدين ، والذى يجب أن يلتزمه العلماء ، ويعتصموا به من طغيان التقليد وعســف التعصب ، وضيق الافق ، وجمود التفكير .. ويجدر بنا أن نستعرض هنا أقوال بعض العلماء من السلف فيه :

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة : ج ٢ ، ص ١٧٣

قال شيخ الاسلام ابن دقيق العيد : « كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء » (١) . وبالغ ابن الحاجب الحنبلى ، وهو صاحبه فقال : « ابن عبد السلام افقه من الغزالى » (٢)

وقال ابن العماد الحنبلى : « وبرع فى الفقه ، والاصول ، والعربية ، وفاق الاقران والاضراب ، وجمع بين فنون العلم من التفسير والحديث ، والفقه ، واختلاف أقوال النـــاس ومآخذهم ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، ورحل اليه الطلبة من سائر الآفاق » (٣) .

ومن ذلك ما نقله السبكى من كلام العلامة جمـــال الدين الحصيرى ــ « شيخ الحنفية فى الشـــام » ــ فيه موجها الى السلطان الاشرف بدمشق .

« قال الحصيرى : هذا رجل لو كان فى الهند او فى أقصى الدنيا ، كان ينبغى للسلطان أن يسعى فى حلوله فى بلاده ، لتتم بركته عليه ، وعلى بلاده ، ويفتخر به على سائر الملوك » (٤)

وقال اليافعى اليمنى : « سلطان العلماء ، وفحل النجباء ، المقدم فى عصره على سائر الاقران ، بحر العلوم والمعـــارف والمعظم فى البلدان ، ذو التحقيق والاتقان والعرفان .. ثم قال : وهو من الذين قيل فيهم : علمهم أكثر من تصانيفهم ، لا من الذين عبارتهم دون درايتهم ، ومرتبته (فى العـــلوم الظاهرة) مع السابقين فى الرعيل الاول » (٥) .

وافتتح السبكى ترجمته بمدحه ، قال : « شيخ الاســلام والمسلمين وأحد الائمة الاعلام ، سلطان العلماء ، امام عصره

---

(١) طبقات الشـــافعية الكبرى : جـ ٥ ، ص ٨١
(٢) نفس المصدر : ص ٨١
(٣) شذرات الذهب : جـ ٥ ، ص ٣٠١

(٤) طبقات الشافعية الكبرى : جـ ٥ ، ص ٩٥
(٥) مراة الجنان : جـ ٤ ، ص ١٥٣

بلا مدافعة ، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها ، العارف بمقاصدها ... » .

وكان الشيخ عز الدين يشعر بمنزلته العلمية ، كسائر عظماء العلم ، واثقا بنفسه ، ويشير الى ذلك رفضه لعرض صاحب الكرك عليه ، عندما اراد هذا أن يستبقى الشيخ عنده فقال :

« بلدك صغير على علمى » (١)

وقد تتلمذ ابن عبد السلام على ائمة دمشق الثقاة ، حيث سمع الحديث من الحافظ أبى محمد القاسم ابن الحافظ الكبير على بن عساكر ، ومن شيخ الشيوخ عبداللطيف بن اسماعيل البغدادى ، ودرس الفقه الشافعى على الشيخ الامام فخر الدين بن عساكر حتى تخرج عليه ، وأخذ علم الاصول عن سيف الدين الآمدى ، أحد الأئمة الاعلام فى الاصول وحضر فى البداية على بركات بن ابراهيم الخشوعى ، والقاضى جمال الدين بن الحرستانى .

وكان لهؤلاء الاساتذة أثر كبير فى تكوين شخصية الشيخ عز الدين الفقهية ، الاصولية ، والعلمية ، الاجتماعية ، القضائية ، ونخص بالذكر ثلاثة من هؤلاء الاساتذة وهم الذين تتلمذ عليهم الشيخ لمدة أطول واستفاد منهم أكثر .

فالاول وهو الفخر بن عساكر ، الذى تفقه عليه عز الدين، ولازمه مدة طويلة ، كان له تأثير كبير فى سلوكه الشخصى — عدا ما تأثر بهفى ميدان الفقه والافتاء — منصلاح وورع ،وتقى وقناعة — فالشيخ الفخر اشتهر بعلمه وورعه وزهده . وهذه أوصاف سنرى أن للشيخ عز الدين حظا كبيرا منها .

وكذلك يظهر تأثر عز الدين به فى سلوكه الاجتماعى والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فنجد عند كليهما مواقف مشابهة من بعض السلاطين فى انكارهما عليهم بعض الامور . عرف عن الشيخ فخر الدين انه أنكر على المعظم عيسى بن الملك

---

(١) طبقات الشافعية : جـ ٥ ، ص ٨٣

العادل تضمين المكوس والخمور ، فغضب عليه السلطان وسلب منه منصب التدريس فى مدرسة التقوية « بدمشق » والصلاحية بالقدس . وانكر عز الدين على السلطان الاشرف مثل هذا الانكار ، وعلى الصالح اسماعيل تحالفه مع الفرنج الصليبيين ضد اخيه نجم الدين بمصر ، وغير ذلك .. وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

وأما الاستاذ الثانى ، قاضى قضاة دمشق ، الشيخ جمال الدين بن الحرستانى ، فزيادة على زهده وورعه وعلمه وفضله ، اشتهر بنزاهته فى القضاء وجراته فى الحكم ، ومساواته فى الانصاف بين الراعى والرعية ، ونلمس آثار ذلك السلوك الشخصى والقضائى بارزة فى سيرة عز الدين ويأتى أخيرا الاستاذ الثالث وهو العالم الاصولى سيف الدين الآمدى الذى اسهم فى تكوين شخصية عز الدين الفقهية الاصولية بقسط كبير ، وكان الآمدى غزالى عصره فى الاصول والكلام والفلسفة . وقد أشاد الشيخ عز الدين بذكره ، وأبان عن فضله عليه ، واعترف بتأثيره فيه .

قال السبكى : « ويحكى أن شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام قال : ماسمعت أحدا يلقى الدرس احسن منه ، كأنه يخطب ، وان غير لفظا من « الوسيط » (١) كان لفظه أمس بالمعنى من لفظ صاحبه » (٢) . ثم قال أخيرا معترفا له « ما تعلمنا قواعد البحث الا من سيف الدين الآمدى » . فهذا اعتراف صريح من عز الدين بأثر استاذه فيه ، وهو يظهر واضحا جليا لمن يقرأ كتاب عز الدين « قواعد الاحكام فى مصالح الانام » . ببحثه المتقن الدقيق ، ومنهجه المنطقى القويم ، واستطاع هو باقتباس منهج استاذه فى البحث والاستخراج والتأليف ، أن يستفيد مما تراكم عنده من المعارف فى الفقه ويستخرج منها قواعد أساسية أو يتلمسها فى أحكام

---

(١) كتاب الغزالى فى أصول الفقه

(٢) طبقات الشافعية الكبرى : جـ ٥ ص ١٣٠

الشرع ، ثم يبنى عليها نظرية متكاملة شاملة فى بناء الاحكام الشرعية على مصالح العباد ، ويؤلف أروع كتاب فيه (١) .

وقد تخرج (٢) على الشيخ عزالدين كثير من التلاميذ الائمة الذين تأثروا بشخصية الشيخ وانتفعوا بعلمه واقتدوا باخلاقه وسلوكه .

ومن بين هؤلاء التلاميذ : شيخ الاسلام ابن دقيق العيد ، والامام علاء الدين أبو الحسن الباجى ، والحافظ أبو محمد الدمياطى ، صاحب معجم فى تراجم شيوخه ، والحافظ أبو بكر بن مسدى الاندلسى ، والشيخ شهاب الدين أبو شامة المقدسى المؤرخ ، والعلامة أحمد الدشناوى ، وأبو محمد هبة الله القفطى .. وغيرهم .

لقد اوجد الشيخ عز الدين مدرسة له فى عصره ، تقوم على اخلاص للعلم ، ونزاهة فى العمل ، وشجاعة فى القلب ، وجراة فى الحق ، مدرسة الاتقياء والورعين ، فتأثر بها تلاميذه وبرزت فى حياتهم وسيرتهم سمات هذه المدرسة على قدر افادة كل واحد منها .

ومن اقرب تلاميذه اليه شيخ الاسلام تقى الدين بن دقيق العيد ، وكان اماما فقيها أصوليا ، وقاضيا ممتازا ، وكان من تقديره لاستاذه وعرفانه لمكانته أن لقبه بـ « سلطان العلماء » فاشتهر بهذا اللقب الشيخ عز الدين .

ونلاحظ فى سيرة ابن دقيق العيد بعض الجوانب والمواقف تشبه الى حد كبير ما رأيناه أو سنراه فى سيرة عز الدين من زهد فى المناصب ، وجراة فى قول الحق ، ودالة على السلاطين .

ومن ذلك عدم مخاطبته للسلطان الا بقوله : « يا انسان »، كما كان يخاطب به عامة الناس . فلا يخشاه ولا ينحله القاب

---

(١) رضوان الندوى : العز بن عبد السلام ، ص ٦٧

(٢) فوات الوفيات : جـ ١ ، ص٥٩٤

الجبروت والعظمة (١) وهذا يشبه خطاب عـــز الدين بن عبد السلام للصالح نجم الدين أيوب فى احتفال العيد بـــ « يا أيوب » وفى ميدان تصلبه فى الدين ، وعنـايته بالأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر ، نرى انه غير لباس القضاة من الحرير — الذى ابتدعوه — الى الصـــوف ، ولا ننسى أن عز الدين أبطل لبس السواد عند خطبة الجمعة بجامع دمشق وكان الخطباء قد أتخذوه من قبل .

بعث الامير « منكوتمر » الى قاضى القضـــاة — ابن دقيق العيد — يعلمه أن تاجرا قد مات وترك وراءه اخاه ، ولم يخلف غيره ممن يرثه ، وأراد الامير أن يثبت استحقاق الرجل للارث بمجرد الاخبار عنه (ويظهر أن قضايا الميراث فى ذلك الوقت كانت تستغرق وقتا طويلا للتحرى عن حقيقة الورثة) .

ولم يوافق القاضى على الاسراع فى اصدار حكمـــه دون انتظار للادلة ، وترددت الرسل بينه وبين الامير وهو صامد عند موقفه ، ولم يطق الامير صبرا على ذلك ، فبعث اليـــه باحد الامراء يرجوه فى هذا الامر ، وحضر الامير الى القاضى، وسلم عليه القاضى بعد أن قام له نصف قومة ، ثم اجلسـه ، وبدأ الامير يتلطف فى اثبات أخوة التاجر بشــــــهادة الامير « منكوتمر » فقال له القاضى :

— وماذا ينبئنى على شهادة منكوتمر ؟

فرد الامير عليه :

— يا سيدى ماهو عندكم عدل ؟

فتضايق القاضى وقال :

— سبحان الله ٠٠ ثم أنشد :

يقولون هذا عندنا غير جائز

ومن أنتم حتى يكون لكم عند؟

---

(١) مصطفى صادق الرافعى : وحى القلم جـ ٣ ، ص ٥٨

(٢) د . محمد عبد العزيز مرزوق : الناصر محمد بن قلاوون ، ص ١٢٨ — ١٢٩

وكرر ذلك ثلاث مرات ثم قال للرسول :

ـ والله حتى تقم عندى بينة شرعية تثبت لدى ، والا فـلا حكمت له بشيء باسم الله .

وانصرف الامير من لدى ابن دقيق العيد وهو يردد :

ـ والله هذا هو الاسلام :

والتقى بمنكوتمر واطلعه على فشله فى مهمته ، وطلب اليه ان يجتمع هو بالقاضى اذا ما جاء الى دار العدل .

فلما حضر ابن دقيق العيد الى دار العدل سارع اليـه المماليك واحدا بعد آخر يقولون له :

ـ يا سيدى الامير ولدك يختار الاجتماع بك لخدمتك .

ولكنه لم يلتفت الى أحد منهم ، ولما الحوا عليه قال لهم :

ـ قولوا له ما وجبت طاعتك على .

ثم التفت الى من معه من القضاة وقال لهم :

ـ اشهدكم انى عزلت نفسى باسم الله قولوا له يولى غيرى

وانصرف الى داره وأغلق بابه عليه .

ولما عرف السلطان بما وقع ، انكر على منكوتمر تصرفه وبعث الى القاضى يعتذر اليه ويرجوه الحضور اليه . ولكنه ابى واعتذر عن طلوعه الى القلعة ، وبعث السلطان اليـه من يلحف فى الرجاء حتى قبل ، وذهب الى السـلطان الذى تلقاه بما يليق به من الاحترام ، وعزم عليـه ان يجلس على مرتبته ، فتقدم ابن دقيق العيد ، وبسط منديله ـ وكان خرقة بالية من الكتان ـ فوق الحرير قبل أن يجلس كراهة ان ينظر الى الحرير او يجلس عليه .

وأخذ السلطان يتلطف معه فى الحديث لكى يعـدل عن استقالته حتى قبل وكان منكوتمر حاضرا فى هذه الجلسة .

وقبل أن ينصرف ابن دقيق العيد قال له السلطان :

ـ يا سيدى هذا ولدك منكوتمر ، خاطرك معه ، ادع له .

فنظر اليه القاضى ساعة وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقـول :

ـ منكوتمر لا يجيء منه شيء .

وكررها ثلاث مرات ثم قام متجها الى منزله .

وما كاد يخرج من حضرة السلطان حتى بادر هـذا فأخذ الخرقة التى وضعها على المرتبة تبركا بها ، ومزقها الامـــراء قطعة قطعة ليدخروها عندهم رجاء بركتهم .

وموقفه من السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى حـــادثة معروفة تشبه تماما موقف عز الدين من الملك قطز فى صد زحف التتار على الشام . وخلاصتها : أن ابن قلاوون أراد أن يأخذ مالا من الرعية لانفاقه على حملة الى بلاد الشام ، واعتمد على فتوى كانت قد صدرت من الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، بأن يؤخذ من كل انسان دينار ، وطلب من قاضى القضاة ابن دقيق العيد أن يوافق على هذه الفتوى القديمة لكى يعطيهـــا قوة التنفيذولكن قاضى القضاة رفض ذلك .

ورفع الامر الى الامير «سلار» نائب السلطنة ، فشق عليه ذلك ، وبعث يستدعى قاضى القضاة الذى حضر ، وكان فى المجلس بعض الامراء والعلماء وشكا «سلار» من قلة المال فى الدولة ، وقال ان الضرورة وحدها هى التى دعت الى الرغبة فى الاستعانة بمال الرعية لاجل دفع العدو ، ورجـــا قاضى القضاة أن يوافق على الفتوى القديمة .

ولكن ابن دقيق العيد اصر على الرفض ، ويظهر أن هذا الاصرار قد ضايق بعض الحاضرين فانبرى الى قاضى القضاة ينكر عليه اصراره على الرفض ، ويذكره بالفتوى القديمة ، فرد عليه القاضى قائلا :

« ان تلك الفتوى لم يصدرها العالم الجليـــــل « ابن عبد السلام » الا بعد أن احضر سائر الامراء ما فى ملكهم من ذهب ، وفضة ، وحلى نسائهم ، وحلف كل منهم له أنه لايملك سوى هذا القدر الذى احضره ، ولما كان ذلك المال غير كاف أفتى بأخذ دينار من كل شخص ، أما الآن فأنا أعلم أن كلا من الامراء له مال جزيل ، وفيهم من يجهز بناته بالجـــــــواهر واللآلىء ، ومنهم من يعمل الاناء الذى يستنجى منه فى الخلاء

من فضة ، ومنهم من يرصع مداس زوجته بأصـــــناف الجواهر » .

وخيم الصمت العميق على المجلس ، وخرج ابن دقيق العيد مطمئنا الى اداء واجبه ، ولم يجد نائب السلطنة مفرا من أن يصدر أمره الى والى القاهـرة بالنظر فى أموال التجـــار والاغنياء ، ويأخذ ما يقدر عليه من كل منهم بحسب حاله .

وهكذا كانت شجاعة هذا العالم الجليل فى الحق ، وعدم خشيته من ذوى السلطان سببا فى رفع الظلم عن الشعب .

ومن تلاميذه المبرزين قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الاعز ، وكان فقيها ، اماما ، مناظرا ، بصيرا بالاحكام (١) . وهـــو الذى فوض اليه عز الدين تدريس المدرسة الصالحية عنـــد وفاته ، وكان نائبه فى الحكم .

وقال السبكى فيه :

« وكان يقال : أنه آخر قضاة العدل ، واتفق الناس على عدله وخيره » (٢) .

فعدا تفقهه على شيخه عز الدين بن عبد السلام واستفادته بعبقرية استاذه فى فقه الشريعة نراه يتأسى به فى سيرته فى الحكم والقضاء ، ومعاملته للسلاطين والامراء بشدة وتصلب وجراة فى الحق كما عهد من الشيخ عز الدين .

ذكر السبكى أنه سئل تاج الدين من قبل الملك الظـــاهر بيبرس فى أمر ، فامتنع من الدخول فيه ، فقيل له :

ـــ مر نائبك الحنفى ـــ وكان قاضى القضاة ، وهو الشافعى يستنيب من شاء من المذاهب الثـلاثة ـ فتصلب وامتنع من ذلك أيضا ، ولما لم يستطع الملك اخضاعه لرغبتـــه ابتغى طريقا آخر ، فجـدد مناصب القضاة الثلاثة الآخرين (٣) .

---

(١) فوات الوفيات : جـ ١ ، ص ٥٢٤
(٢) طبقات الشافعية : جـ ٦ ، ص ٢
(٣) نفس المصدر : جـ ٥ ، ص ١٣٤

وكان الأمراء يشهدون عنده ، فلا يقبل شهادتهم (١) لعدم توفر الاهلية المشروطة فى الشرع فيهم ، ومعروف أن عز الدين أسقط شهادة وزير لاتيانه منكرا واستقال من القضـــــاء احتجاجا على مناصرة السلطان لوزيره فى حادثة معروفة فهذا وذاك من المواقف والحوادث ، والمحنة ، والعزل من المناصب يشبه ما مر به الشيخ عز الدين ، أستاذه ، فى حياته .

ولا يقال أنها صفات العصر الممتازة ، لا صـفات الشـيخ عز الدين التى تأثر بها تلاميذه ، لان القلة من علماء هذا العصر هى التى تمثل هذه الصفات ، ونرى أغلبية العلماء يخضعون للسلاطين ، ويجارون الظروف ولا يتحدون الطغاة الظلمة ، ولذلك اذا امتاز أحد بالشجاعة فى قول الحق ، والامـــر بالمعروف والنهى عن المنكر ، اشتهر واستفاض ذكره .

هذا والعصر لا تتكون صفاته ولا تتشكل سماته الا على أيدى موجهيه والمؤثرين فيه ، وعز الدين بن عبد الســلام أحد هؤلاء ، بل أقواهم وأشهرهم فى عصره ، ولا فرق اذا كان تأثيره فى تلاميذه مباشرا أو غير مباشر عن طريق مدرســته التى اوجدها فى السلوك الاجتماعى للعلماء ، وفى الحكم ، والقضـــــاء للقضاة .

مؤلفـــــاته :

ألف الشيخ عز الدين بن عبد السلام فأكثر من التأليف . واتقن وأجاد وأشاد بذكره فى هذا المجال فحول العلماء وكبار المؤلفين .

قال ابن كثير :

– « وله مصنفات حسان ، منها (٢) .. »

وقال الذهبى :

---

(١) نفس المصدر : ص ١٣٥

(٢) البداية والنهاية : جـ ١٣ ، ص ٢٣٥

ـ « وله التصانيف المفيدة (١) ٠٠ »
وقال أبو الفداء :
ـ « وله مصنفات جليلة فى المذهب » (٢)
ألف عز الدين بن عبد السلام فى التفسير والحديث ، والعقائد ، والفقه ، والاصول ، والفتاوى ، والسيرة ، والتصوف ، وفضائل الاعمال ، ومؤلفاته فى تلك العلوم وغيرها تربو على الاربعين مؤلفا أكثرها مخطوط .
ويجدر بنا أن نعمل على تحقيق وطبع مؤلفات هذا العالم الجليل .
لقد جمعنا أسماء كل ما ألفه الشيخ عز الدين او شرحه او اختصره ، ثم صنفناها حسب الفنون :

(أ)اصول الفقه والفتاوى :

١ ـ قواعد الاحكام فى مصالح الانام :
ومنه نسخ كثيرة فى مكتبات العالم تحت أسماء مختلفة هى : « قواعد الشريعة الكبرى » . و « القواعد الكبرى » و « القواعد فى المصالح والمفاسد » .
٢ ـ القواعد الصغرى : ويعرف ايضا بـ « الفوائد فى اختصار القواعد » و « الفوائد فى اختصار المقاصد » و « الأمالى فى المصالح والمفاسد » ٠
٣ ـ شرح منتهى السؤال والأمل فى علمى الاصول والجدل .
٤ ـ فرائد الفوائد وتعارض القوانين لمجتهد واحد ٠
٥ ـ مبهج الرائد بالضوابط الفرائد ٠
٦ ـ كتاب الصلاة أو مقاصد الصلاة (وهى الرسالة التى ورد ذكرها بتنويه عظيم فى ترجمة الشيخ عز الدين

---

(١) برواية ابن تغردى بردى عنه فى النجوم الزاهرة : جـ ٧ ، ص ٢٠٨
(٢) مختصر تاريخ البشر : جـ ٣ ، ص ٢١٥

في طبقات السبكي جـ ٥) .
٧ ــ مقاصد الصوم .
٨ ــ مناســـك الحج .
٩ ــ أحكام الجهاد وفضله .
١٠ ــ الغاية في اختصار النهاية (في فروع الشافعية) وهو مختصر لنهاية المطالب لامام الحرمين الجويني (خمسة اجـــزاء) .
١١ ــ الجمع بين الحاوي والنهاية .
١٢ ــ الفتاوى الموصلية .
١٣ ــ الفتاوى المصرية .

(ب) العقائد :

١٤ ــ ملحة الاعتقاد أو العقائد : (رسالة صغيرة مطبوعة في طبقات السبكي جـ ٥ ص ٩٢ ــ ٩٨)
١٥ ــ الفرق بين الاسلام والايمان .
١٦ ــ الامام في بيان ادلة الاحكام المتعلقة بالملائكة والمرسلين وسائر العالمين .
١٧ ــ كتاب الانواع في علم التوحيد .

(جـ) التفسير وعلوم القـــرآن :

١٨ ــ أمالي في تفسير القرآن .
١٩ ــ كشف الاشكالات عن بعض الآيات .
٢٠ ــ فوائد في تفسير القرآن .
٢١ ــ فوائد عز الدين بن عبد السلام .
٢٢ ــ الاشارة الى الايجاز في بعض انواع المجاز . مطبـــوع بالآستانة سنة ١٣١٣ هـ .
٢٣ ــ مجاز القرآن . وفي غالب ظننا أنه نفس الكتـــــاب المطبـــوع .

٢٤ ــ المجاز الى حقائق الاعجاز ، (اسم آخر لنفس الكتاب السابق) .

(د) الحديث :

٢٥ ــ مختصر صحيح مسلم .
٢٦ ــ رسالة فى شرح حديث « لا ضرر ولا ضرار » .

(هـ) السيرة :

٢٧ ــ بداية السؤال فى تفضيل الرسول عليه السلام .
٢٨ ــ رسالة فى بيان تفضيل النبى على جميع الانام .
٢٩ ــ غايات الاصول فيما صح من تفضيل الرسول .
٣٠ ــ قصة وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

(و) التصـــوف :

٣١ ــ حل الرموز ومفاتيح الكنوز .
٣٢ ــ مسائل الطريقة فى علم الحقيقة (المشهور بالســتين مســـألة) .
٣٣ ــ رسالة فى القطب والابدال الاربعين .

(ز) فضائل الأعمال والعلوم المختلفة :

٣٤ ــ شجرة المعارف وادلة الاحكام .
٣٥ ــ نهاية الرغبة فى ادب الصحبة .
٣٦ ــ الفتن والبلايا والمحن والرزايا .
٣٧ ــ ترغيب أهل الاسلام فى سكنى الشام .
٣٨ ــ مجلس فى ذم الحشيشة .
٣٩ ــ بيان أحوال الناس يوم القيامة .
٤٠ ــ مقاصد الرعية .

٤١ ـ نخبة العربية فى الفاظ الاجرومية فى النحو .
٤٢ ـ ثلاثة وثلاثون اشعار (كذا) (١) فى مدح الكعبة .
٤٣ ـ وصية الشيخ عز الدين .

عرض وتحليل لبعض مؤلفاته :

قواعد الاحكام فى مصالح الانام :

عرف هذا الكتاب باسماء مختلفة كما سبق أن ذكرنا . وقد طبع عدة مرات بمصر ، الاولى فى شعبان ١٣٥٣ هـ (نوفمبر ١٩٣٤) بعناية المكتبة الحسينية ، والطبعة الثانية بعناية المكتبة التجارية الكبرى ولم يحدد تاريخ طبعها ، والطبعة الثالثة بعناية مكتبة الكليات الازهرية فى صفر ١٣٨٨ هـ (مايو ١٩٦٨)

يقول الشيخ عز الدين فى بيان مقاصد الكتاب (٢) .

« الغرض بوضع هذا الكتاب بيان مصالح الطاعات والمعاملات وسائر التصرفات لسعى العباد فى تحصلها ، وبيان مقاصد المخالفات ليسعى العباد فى درئها ، وبيان مصالح العبادات ليكون العباد على خبر منها ، وبيان ما يقدم من بعض المصالح على بعض :

وما يؤخر من بعض المفاسد على بعض ، وما يدخل تحت اكتساب العبيد دون ما لا قدرة لهم عليه ولا سبيل لهم اليه ، والشريعة كلها مصالح اما تدرأ لهم مفاسد أو تجلب مصالح ، فاذا سمعت الله يقول « يا أيها الذين آمنوا » ، فتأمل وصيته بعد ندائه ، فلا تجد الا خيرا يحثك عليه أو شرا يزجرك عنه، أو جمعا بين الحث والزجر ، وقد أبان فى كتابه ما فى بعض

---

(١) كذا ورد اسمه عند بروكلمان ، والا فالصحيح « شعرا »
(٢) قواعد الاحكام فى مصالح الانام : جـ ١ ، ص ١٠ ـ ١٢

الاحكام من المفاسد حثا على اجتناب المفاسـد وما فى بعض الاحكام من المصالح حثا على اتيان المصالح » .

ويبين حقيقة المصالح والمفاسد فيقول :

« المصالح اربعة انواع :

اللذات وأسبابها ،

والافراح واسبابها .

والمفاسد اربعة انواع :

الآلام واسبابها ،

والغموم وأسبابها ،

وهى منقسمة الى دنيوية وأخروية ، فأما لذات الدنيـا وأسبابها وأفراحها وآلامها و اسبابها ، وغمومها وأسبابهـا فمعلومة بالعادات ، ومن أفضل لذات الدنيا لذات المعارف وبعض الاحوال ، ولذات بعض الافعال فى حق الانبياء والابدال فليس من جعلت قرة عينه فى الصلاة كمن جعلت الصلاة شاقة عليه ، وليس من يرتاح الى ايتاء الزكاة كمن يبذلها وهو كاره لهـا .

وأما لذات الاخوة وأسبابها وأفراحها وأسبابها ، وآلامها وأسبابها وغمومها وأسبابها ، فقد دل عليه الوعيد ، والزجر والتهديد ، وأما اللذات فمثل قوله :

— « وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين » .

وقوله :

— « ويطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين »

وأما الافراح ففى مثل قوله تعالى :

— « ولقاهم نضرة وسرورا » .

وقوله :

— « فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

وفى مثل قوله :

— « يستبشرون بنعمة من الله وفضل » .

وأما الآلام ففى مثل قوله :

— « ولهم عذاب اليم » .

وقوله :

— « ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ » .

وأما الغموم ففى مثل قوله :

— « كلما ارادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها »

ويقـــــول :

سعى الناس كلهم فى جانب الافراح والملذات وفى درء الغموم المؤلمات ، فمنهم من يطلب الاعلى من ذلك فالاعلى وقليل ما هم ومنهم من يقتصر على طلب الادنى ، ومنهم الســــاعون فى المتوسطات ، والقدر من وراء سعى السعادة وكل متسبب فى مطلوبه . فمن بين ظافر وخائب ومغلوب وغالب ورابح وخاسر ومتمكن وحاسر ، كلهم يتقلبون والى القضاء ينقلبون ، فمن طلب لذات المعارف والاحوال فى الدنيا ولذة النظر والقــرب فى الاخرة فهو افضل الطالبين ، لان مطلوبه افضل من كــل مطلوب ، ومن طلب نعيم الجنان وافراحها ولذاتها فهــو فى الدرجة الثانية ، ومن طلب أفراح هذه الدار ولذاتها فهو فى الدرجة الثالثة ، ثم يتفاوت هؤلاء الطلاب فى رتب مطلوباتهم ، فمنهم الاعلون والمتوسطون ، فأما طلاب الآخرة فاقتصروا فى طلب لذات الدنيا وافراحها على ما يدفع الحاجة او الضرورة واشتغلوا بمطالب الاخرة ، ولن يصـــــل احد منهم الا الى ماقدر له ، وقد غر بعضــــهم انهم ادركـوا بعض ما طلبـوا فظنـــــوا أنهم نالوا ذلك بحزمهم وقواهم فحابوا ونكصـــــوا ووكلوا الى انفسهم فهلكوا ، ومنهم من واظب انه لا ينــــال خيرا الا بتوفيـــق الله ولا ينال خيرا الا بارادة الله فهـؤلاء لايزالون فى زيادة ، لان الطاعات والمعـــارف والاحوال اذا دامت ادت الى امثالها والى افضل منها .

وعلى الجمـــلة فمن اقبـل على الله اقبل الله عليه ، ومن اعرض عن الله اعرض الله عنه ، ومن تقرب الى الله شـــبرا تقرب منه ذراعا ، ومن تقرب منه ذراعا ، تقـرب منه باعا ، ومن مشى اليه هرول اليه ومن نسب شيئا الى نفسه فقد زل

وضل ، ومن نسب الاشـــياء الى خالقها المنعم بها كان فى الزيادة ، لان الله تعالى قال :

ـ « لئن شكرتم لأزيدنكم وسنجزى الشاكرين » .

وافضل ما تقرب به التذلل لعزة الله والتخضـــع لعظمته والايحاش لهيبته ، والتبرى من الحول والقـوة الا به ، وهـذا شــــأن العارفين ، وما خرج عنـه فهو طـريق الجاهلين او الغافلين ، وقد تمت الحكمة وفرغ من القسمة ، وسينزل كل أحد فى دار قراره حكما وعدلا وحقا ، قسطا وفضـــلا ، وما ثبت فى القدم لا يخلفه العدم ولا تغيره الهمم ، بعـد ان جرى به القلم وقضـاه العدل الحكم ، فأين المهرب والى اين المذهب وقد عز المطلب ووقع ما يذهب !!

فيا خيبة من طلب ما لم تجربه الاقدار ولم تكتبه الاقلام ، يالها من مصيبة ما أعظمها وخيبة ما أفحمها !!

اين المهـرب من الله واين الذهاب عن الله واين الفرار من قدرة الله ! ؟ بينما يرى احدهم قريبا دانيا اذا اصبح بعيـدا نائيا ، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا حفظا ولا رفعا .

والله لن تصل الى شىء الا بالله فكيف توصل بغيره ؟ ..

ويقول :

« لما علم الرب سبحانه انه قد جبل عباده على الميـل الى الافراح واللذات ، والنفور من الغموم والمؤلمات ، وانه قـد حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات ، وعد من عصى هواه وأطاع مولاه بما أعـده فى الجنان من التوبة والرضـــوان ترغيبا فى الطاعات ليتحملوا مكارهها ومشاقها ، ويتوعد من عصى مولاه واطاع هواه بما اعـــده فى النيران من العقوبة والهوان ، زجرا عن المخالفات ليجتنبوا ملاذها ورفاهيتها ، ومدح الطائعين ترغيبا فى الدخول فى حمده ومدحته ، وذم العاصين تنفيرا فى الدخول فى لومه ومذمته ، وكذلك وضع الحـــدود والعقوبات العاجلة زجرا عن الســـيئات .

فالواجب على العباد اتباع اسباب الرشاد ، وتنكب اسـباب الفساد ، وقضاء الله وقدره من وراء ذلك ، فلا راد لحكمـه

ولا معقب لقضائه ، ولا خروج لعبد عما حكم له او عليه من سعادة او شقاوة » ·

فالكتاب موضوع فى تتبع المصالح للعباد فيما ورد لهم من احكام الشرع ، ثم تأسيس الاحكام الشرعية الاخرى على هذا الأساس ، وغايته اذن بيان القواعد الفقهية الكلية وذلك على طريقة فصول فقهية موضوعيه يضع فيها المؤلف الموضوع الفقهى عنوانا فى رأس الفصل ، ثم يقسم الاحكام المتعلقة به ، ويفصلها تفصيلا فيه كثير من بيان حكمة التشريع ·

فمثلا يقول فى فصل « فى تصرف الاحاد فى الاموال العامة عند جور الائمة » (١) :

« لا يتصرف فى اموال المصالح العامة الا الائمة ونوابهم ، فاذا تعذر قيامهم بذلك ، وامكن القيام بها ممن يصلح لذلك من الآحاد بأن وجد شيئا من مال المصالح ، فليصرف الى مستحقيه على الوجه الذى يجب على الامام العدل ان يصرفه فيه ، بأن يقدم الاهم فالاهم ، والاصلح فالاصلح ، فيصرف كل مال خاص فى جهاته اهمها فأهمها ، ويصرف ما وجده من اموال المصالح العامة فى مصارفها اصلحها فأصلحها ، لانا لو منعنا ذلك لفاتت مصالح صرف تلك الاموال الى مستحقيها ، ولأثم أئمة الجور بذلك وضمنوه ، فكان تحصيل هذه المصالح ودرء هذه المفاسد اولى من تعطيلها ، وان وجد اموالا مغصوبة ، فان عرف مالكيها فليردها عليهم ، وان لم يعرفها فان تعذرت معرفتهم بحيث يئس من معرفتهم صرفها فى المصالح العامة اولاها فاولاها ، وانما قلنا ذلك لان الله قال : « وتعاونوا على البر والتقوى » ، وهذا بر وتقوى · وقال صلى الله عليه وسلم : « والله فى عون العبد ما كان فى عون أخيه » · وقال صلى الله عليه وسلم : « كل معروف صدقة » ، فاذا جوز رسول الله صلى الله عليه

---

(١) قواعد الاحكام فى مصالح الانام : ج ١ ، ص ٨٢ .

وسلم لهند ان تأخذ من مال زوجها ابى سفيان ما يكفيها وولدها بالمعروف ، مع كون المصلحة خاصة ، فلان يجوز ذلك فى المصالح العامة أولى ، ولاسيما غلبة الظلمة للحقوق ، ولا شك ان القيام بهذه المصالح اتم من ترك هذه الاموال بأيدى الظلمة يأكلونها بغير حقها ، ويصرفونها الى غير مستحقها ، ويحتمل ان يجب ذلك على من ظفر به كمن وجد اللقطة فى مضيعة ، واذا جوز الشرع لمن جحد حقه ان يأخذ من مال جاحده اذا ظفر به ان كان من جنسه ، وان يأخذه ويبيعه ان كان من غير جنسه ، مع ان هذه المصلحة خاصة فجواز ما ذكرناه مع عمومه أولى .

وقد خير بعض اصحاب الشافعى واجد ذلك بين ان يصرفه فى مصارفه ، وبين ان يحفظه الى ان يلى المسلمين من هو أهل بصرف ذلك فى مصارفه ، وينبغى ان يقيد بما ذكره بعض الاصحاب بوقت يتوقع فيه ظهور امام عدل ، واما فى مثل هذا الزمان المايوس فيه من ذلك فيتعين على واجده أن يصرفه على الفور فى مصارفه ، لما فى ابقائه من التغرير به وحرمان مستحقيه من تعجيل أخذه ، ولاسيما اذا كانت الحاجة ماسة اليه بحيث يجب على الامام تعجيلها » .

وقال فى فصل « فيما يتعلق به الثواب والعقاب من الافعال (١) » .

« لا يثاب الانسان ولا يعاقب الا على كسبه واكتسابه ، ولا يكون الا بمباشرة او بتسبب قريب او بعيد : قال الله تعالى :

– « انما تجزون ما كنتم تعملون » .

وقال :

– « وان ليس للانسان الا ما سعى » .

---

(١) قواعد الأحكام فى مصالح الأنام ، جـ ١ ص ١٣٥ .

اى ليس له الا جزاء سعيه ، وقال :

ـ « ولا تكسب كل نفس الا عليها » .

ولان الغرض بالتكاليف تعظيم الاله بطاعتــه واجتنـــاب معصيته ، وذلك مختص بفاعليه ، اذ لا يكون معظم المحرمات منتهكا لها بانتهاك غيره ، ولا منتهك المحرمات معظمـــا لها بتعظيم غيره ، فكذلك لا تجـــوز الاســـتنابة فى المعاصى والمخالفات ، ولا فى الطاعات البدنيات ، الا ما استثنى من الطاعات كالحج والعمـــرة والصـــوم والصـدقات رحمة للعاجزين بتحصيل ثواب هذه القـــربات ، وللنائبين عنهم بالتسبب الى انالة ثواب هذه الطاعات .

واما قوله عليه الصلاة والسلام :

ـ « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صـــدقة جارية ، او علم ينتفع به ، او ولد صالح يدعو له » .

ومعناه انقطع اجر عمله او ثواب عمله فهـــذا على وفق القاعدة ، لان هذه المستثنيات من كسبه ، فان العلم المنتفع به من كسبه فجعل له ثواب التسبب الى تعليم هـــذا العلم ، وكذلك الصدقة الجارية تحمل على الوقف وعلى الوصـــية بمنافع داره وثمار بستانه على الدوام ، فان ذلك من كسبه ، لتسببه اليه ، فكان له اجر التسبب ، وليست مســـتثناه من هذه ، لان ثواب الدعاء للداعى والمدعو به حاصل للمدعو له ، وثواب الدعاء للداعى ، كما لو شفع انسان لفقير فى كسوة او فى العفو عن زلة ، كانت للشافع ثواب الشفاعة فى العفو والكسوة ، وكانت مصلحة العفو والكسوة للفقير .

وقد ظن بعض الجهلة ان المصـــاب مأجور على مصـــيبته ، وهذا خطأ صريح فان المصائب ليست من كســـــبه مباشرة ولا تسبب ، فمن قتل ولده او غصب ماله او اصيب ببلاء فى جسده ، فليست هذه المصائب من كسبه ولا تسببه حتى يؤجر عليها ، بل ان صبر عليها كان له اجر الصابرين ! وان رضى بها كان له اجر الراضين ولا يؤجر على نفس المصيبة ، لانها ليســت من عمله ، فقد قال تعـــالى : « انما تجزون ما كنتم

تعملون » ، كيف والمصـائب الدنيوية عقوبات على الذنوب ، والعقوبة ليست ثوابا ، ويدل على ذلك قوله تعالى :

ـ « ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » .

وقوله عليه السلام :

ـ « ما من مؤمن يشـــاك شـوكة فما دونها الا قص به من سيئاته » .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

ـ « لا يصيب المؤمن من وصب ولا نصب حتى الهم يهمـه والشوكة يشاكها الا كفر به من سيئاته » .

فيحمل قوله عليه الســــــلام « من عزى مصابا فله مثل اجره » ، على تقدير فله مثل أجر صبره ، لقوله تعالى « وان ليس للانسان الا ما سعى » .

هذا في المصائب التي لا تسبب له اليها ، واما ما تسـبب اليه فان كان من الســـــيئات كتب عليه واخذ به في الدنيا والاخرة ، فان من جرح انسانا فسرى الجراح الى نفسه كان وزر القتل وقصاصة وديته عليه ، ولو ألقى على انســــان حجرا ثم مات الملقى قبل وصول الحجر على الملقى عليه فهلك بذلك الحجر بعد موت الملقى ، فانه يأثم اثم القاتلين العامدين ويجب عليه ما يجب عليهم ، مع كون القتل وقع بعـد خروجه عن التكليف ، لانه لما كان القتل مسببا عن القائه ، قدر كائنه قتله عند ابتداء القائه ، وان كان ما يتسبب اليه من الحسنات اجر عليه ومثاله : التسبب للقتل في سبيل الله تعالى بالجراح او الرمي كما لو رمى سهما في كافر فأصابه السهم بعد موت الرامي فقتله بسبب أمره ونهيه فهذا متسبب الى قتل نفسه لله عز وجل ، فيكون حكمه حكم من قتـــل الكفرة او الفجرة ، ولا يثاب على القتل ، لان القتل ليس من كسبه ، وانما يثاب عليه لانه تسبب اليه بأمره ونهيه ، وكذلك تسبب الغازي الى قتل نفسه لحضوره المعركة .

فان قيل : القتل معصـية من القاتل الكافر ، فكيف يتمنى الانسان الشهادة مع ان تسببها معصية ؟

فالجواب : انه ما يتمنى القتل من جهة انه قتل وانما تمنى ان يثبت فى القتال ، فان اتى القتل على نفسه فكان ثوابه على تعرضه للقتل لا على نفس القتل الذى ليس من كسبه ، أى تمنون القتل فى سبيل الله من قبل أن تلقوا وعلى هذا يجعل قوله تعالى « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه اسبابه فى يوم احد ، ويجوز ان يتمنى الانسان القتل من جهة كونه سببا لنيل منازل الشهداء ، لا من جهة كونه قتلا ومعصية ، وقدكان عمر رضى الله عنه يقول :

ـ « اللهم انى اسألك الشهادة فى سبيلك ، وموتا فى بلد رسولك » ·

ان كتاب « قواعد الاحكام فى مصالح الانام » اشبه بمدخل فقهى جليل ·

والكتاب له قيمة تاريخية كبرى فهو أول كتاب يكتب فى هذا الموضوع لغير الحنفية الذين سبقوا الشيخ عز الدين بالتأليف فى هذا المجال ·

مجاز القرآن :

وهو الكتاب الثانى المطبوع من مؤلفات الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، حيث تم طبعه فى رمضان سنة ١٣١٣هـ فى المطبعة العامرة بالآستانة ، ويقع فى ٢٢٣ صفحة من القطع الكبير ، وهو مطبوع بحرف دقيق ، وبتسلسل من غير فصل أو مقاطع ، ويقع فهرس الموضوعات فى ٨ صفحات .

وقد ذكر على وجه الكتاب :

« اختصره جلال الدين السيوطى » وسماه « مجاز الفرسان الى مجاز القرآن » .

وموضوع الكتاب ــ كما هو واضح من اسمه ــ بحث عما ورد فى القرآن المجيد من فنون المجاز ، فله علاقة وثيقة بعلوم القرآن .

وقد نحى فيه منحى القدماء ، فجعل كل هدفه أن يعرض الآيات القرآن فيظهر مافيها من حذف أو مجاز أو كناية بيد أن طبيعته كفقيه وأصولي تغلب على بحثه البلاغي ، فما يكاد يعرض الآية بالشرح حتى يسترسل معها في بحث جدلي ، وتظهر هذه الصفة من أول صفحات الكتاب .

فمثلا يقول في « باب الحذف »

« وأدلة الحذف أنواع :

أحدها ما يدل العقل على حذفه والمقصود الاظهر على تعيينه وله مثالان :

أحدهما قوله :

– « حرمت عليكم الميتة » .

المثال الثاني :

– « حرمت عليكم أمهاتكم »

فان العقل يدل على الحذف اذ لا يصح تحريم الاجرام، لأن شرط التكليف أن يكون الفعل مقدورا عليه ، والأجرام لا يتعلق بها قدرة حادثة وكذلك لا يتعلق بها قدرة قديمة الا في حوال (١) وجودها « فما لا يتعلق به قدرة ولا ارادة فلا تكليف به الا عند من يرى التكليف بما لا يطاق ، والمقصود الأظهر يرشد الى أن التقدير حرم عليكم اكل الميتة ، حرم عليكم نكاح أمهاتكم (٢) »

واذا كانت الآية تحتاج الى تفسير فان ابن عبد السلام يشرح معناها ويظهر مغزاها وقيمتها التشريعية أو الخلقية . فيقول في باب المجاز أيضا :

« ومن مجاز لفظ الأمر نسبة الأمر الى الصلاة ، وكذلك نسبة النهي في قوله تعالى : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء

---

(١) حال .

(٢) الاشارة الى الايجاز : ص ٣ .

والمنكر » لما كان تجديد العهد بالله فى الصلاة يتقاضى الانكفاف عن المعصية كما يتقاضاه النهى ، ويتقاضى الطاعة كما يتقاضاها الأمر ، قالوا « أصلاتك تأمرك » وفى الحديث « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله الا بعدا » .

والصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر هى الصلاة الكاملة بخضوعها وخشوعها ، فان الخضوع والخشوع اذا تحققا كانا سببا فى الكف عن العصيان ، وسببا فى الحث على الطاعة ، اذ ليس كل صلاة تتقاضى ذلك ، فكأنه قال : ان الصلاة الكاملة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والألف واللام فى الصلاة للكمال ، كما قال سيبويه فى قولهم زيد الرجل يريدون بذلك الكامل فى رجولته » (١) .

ان الشيخ عز الدين لا يبحث فى المجاز والحذف والكتابة لذات المبحث أو لغاية جمالية صرفة ، وانما غايته أن يظهر معانى القرآن ، ويفسر من آياته ما يحتاج الى تفسير .

وقد « اهتدى (٢) الى فكرة لم يتعرض لها من قدامى الباحثين فى اللغة الا كبار المتخصصين ، وهى فكرة المجاز وشيوعه حتى يصير حقيقة . فالكلمة التى تدل على معناها الشائع هى الحقيقة ، فاذا نقل معنى كلمة أخرى أو افترض لهذه الكلمة فهو مجاز يثير الطرافة ويستدعى الدهشة ، حتى اذا شاعت الكلمة الثانية وأصبحت تدل دلالة شائعة على معناها انقلبت من المجازية الى الحقيقة ، وأصبحت تلك الكلمة مستهدفة لوجود مجاز جديد متولد من تلك الحقيقة » .

هذه الفكرة على دقتها قد اهتدى اليها الشيخ عز الدين وعرف بها ، فقال فى باب « مجاز المجاز » وهو أن

---

(١) نفس المصدر : ص ٨٦ .

(٢) محمد حسن عبد الله : عز الدين بن عبد السلام ص ١٤٢ — ١٤٦ .

يجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة الى مجاز آخر ، فتجوز بالمجاز الأول عن الثانى لعلاقة بينه وبين الثـــانى .

مثال ذلك : قوله : « ولكن لا تواعدوهن سرا » فانه مجاز عن مجاز ، فان الوطء يتجوز عنه بالسر لأنه لا يقـــع غالبا الا فى السر ، فلما لازم السر فى الغالب ســـمى سرا ، ويتجوز بالسر عن العقد لأنه سبب فيه ، فالمصحح للمجـــاز الأول الملازمة ، والمصحح للمجاز الثانى التعبير باسم المسبب الذى هو السر عن العقد الذى هو سببا ، كما سمى عقـــد النكاح نكاحا لكونه سببا فى النكاح ، وكذلك سمى العقد سرا لانه سبب فى السر الذى هو النكاح ، فهذا مجاز عن مجاز مع اختلاف المصحح . فمعنى قوله « ولكن لا تواعدوهن سرا » لا تواعدوهن عقد النكـــاح . واذا كان عز الدين قـــد اعتبر ذلك من مجاز المجاز ، فالمعنى الـــذى المعنا اليه واضـــح فى قوله : « فلما لازم السر فى الغالب سمى سرا ، فمعنى ذلك انه انتقل من المجازية الى التسمية الحقيقية الشائعة » .

وبعد أن ينتهى الشيخ عزالدين بن عبدالسلام من التمثيل للحذف والمجاز والكناية ، من آيات القرآن يأخذ فى استعراض سور القرآن كلها وعلى ترتيبهـــا بشرط أن يكون فيهـــا شىء محذوف فيوضحه ، واذا كان يحتمل اكثر من محـــذوف ذكر ذلك وبين اقوال المفسرين ورأيه فيها .

وقد استعمل طريقة من انجح الطرق فى تفسير القرآن المجيد فى خلال هذه العملية وهى تفســـير القرآن بالمأثور ، فيأتى بالآية التى فيها حذف ويبحث عن المحـــذوف المقـــدر ويحاول استنتاجه من آية أخرى أو من حديث شريف .

وهذا المنهج واضح من اول كلمة يأخـــذ فى اظهـــار محذوفها ، اذ يقول فى « أعوذ بالله من الشـــيطان الرجيم » « اى اعوذ بك من همزات الشياطين » ، أو من نزغ الشيطان الرجيم ، لقوله : « اما ينزغنك من الشيطان نزغ » .

والاول اولى ، لأن الشيطان يوسوس لقارىء القرآن فى تحريفه وتبديله وتنزيله على غير مراد الله منه » .

وهذا الكتاب يعد بحق كما قال السبكى : « شاهدا على امامته فى علوم الشريعة » .

مسائل الطريقة فى علم الحقيقة :

ويعرف بالستين ، وذلك لأنه يحتوى على ستين مسألة ، أو سؤال ، يتولى الشيخ عز الدين بن عبد السلام الاجابة على كل منها ، وهى أسئلة تدور حول المعانى التصوفية والخلقية . ويتسم السؤال والجواب بالايجاز .

ومن الامثلة سؤال عن الايمان ، وسؤال عن تأويل « لا حول ولا قوة الا بالله » وسؤال عن الفرق بين الاسلام والايمان . . . وهكذا .

وهاك نموذجا منه :

قال :

١ — مسألة : اذا قيل لك « ما الايمان ؟ وما راس الايمان ؟ وما وسط الايمان ؟ وما شجرة الايمان ؟ وما ماء الايمان ؟ وما نهر الايمان ؟

فالجواب :

أن تقول :

الايمان هو الصدق ، وراسه التقوى ، ووسطه الطاعة واليقين ، وعروقه الصلاة والاخلاص ، وشجرته الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغصنه التوحيد ، وثمرته الزكاة ، وأرضه المؤمنون ، وماؤه كلام الله ، ونهره العلم .

ب — مسألة : ان قيل لك :

لكل شىء جوهرة ، وجوهرة الانسان العقل ، فما جوهرة العقل ؟

فالجواب :
أن تقول :

جوهرة العقل الصبر ، والعمل بحركات القلوب عند مطالعة الغيوب ، وأصل الطاعة الورع ، وأصل الورع التقوى ، وأصل التقوى محاسبة النفس بالخوف والرجاء من الله تعالى .

حـ — مسألة : ان قيل لك :

ما الذى يجب على الشيخ فى حق المريد ، وما الذى يجب على المريد فى حق الشيخ ؟

فالجواب :
أن تقول :

على الشيخ ثلاثة أشياء : التمسك فى البداية ، والتبليغ فى النهاية ، والحفظ فى الرعاية والمريد عليه ثلاثة أشياء : امتثال أمره ، وكتمان سره ، وتعظيم قدره .

د — مسألة : ان قيل لك :
الجهل على كم قسم ؟
فقل :
« على قسمين : جهل مركب ، وجهل بسيط .
فالجهل المركب هو اعتقاد أمر على خلاف ما هو عليه ، والجهل البسيط هو عدم ادراك أمر من الأمور بخلاف المركب » .

حل الرموز ومفاتيح الكنوز (1) :

موضوع هذا الكتاب تصوفى . وقد دفع الشيخ

---

(1) مطبوع فى مصر بمطبعة جريدة الاسلام سنة ١٣١٧ هـ . ويقع فى ٨٦ صفحة فى القطع المتوسط . ومجلد مع كتاب « فتح الرحمن بشرح رسالة الوالى رسلان » للشيخ زكريا الأنصارى .

عز الدين الى تأليفه ما رآه من بعض المعترضين على الصوفية وعلى من تأخذهم أحوالها ، فيتفوهون بعبارات غريبة المجاز بعيدة التأويل . أو يظهرون بمظهر مضطرب يأباه الذوق والكياسة ، أو قد يناقض الشريعة وظاهرها .

اراد الشيخ عز الدين أن يبين لهؤلاء المعترضين سبب هذا التجوز أو الاضطراب أو التناقض ، وأن يفصح لهم عن كفه هذه الرموز ، ويجلى لهم حلها حتى لا يتورطوا فى شىء لا يعلمون حقيقته .

قال الشيخ فى المقدمة فى معرض الاستدلال ، الحكاية التالية :

وقد بلغنى عن « قضيب البان » بالموصل ، وكان عظيم الشأن ، وكان قد برز للناس بالوله والاختلال وترك الصلاة ، لا يأوى الا الى المزابل ، ولا يتوقى النجاسة ، والناس متحيرون فى حاله مختلفون فى أمره . فهم يقولون : زنديق . وقوم يقولون : صديق .

فبينما يوم من الايام ، كان قاضى المدينة مارا اذ رآه على مزبلة ، وقد بال على ساقيه . فقال القاضى فى نفسه :

— « تبا لمن جعلك صديقا ، وما أنت الا زنديق » .

فما استتم الخاطر ، حتى قال « قضيب البان » :

— ياقاضى ! قد أحطت بجميع علم الله ؟

قال له :

— لا ، والله .

قال :

— فأنا من ذلك العلم الذى لا تعلمه ، وما عليك ان كنت صديقا أو زنديقا » .

فلهذه الحالة وأمثاليا ، وما يكتنفها عادة من ابهام وغموض ، ألف الشيخ عز الدين كتابه هذا .

وقد قال بعد أن سرد القصة السالفة :

« فلما رأيت هذه الأقوال الصادرة عن أهل الأحوال ، وقد أشكل على الأفهام تعليلها ، وعزب عن الأوهام تأويلها ، أحببت أن أشرح منها ما انشرح له صدرى ، وسنح به فكرى ، وبلغ اليه قدرى . وذكرت فيــه من العبــارة ما ليس فيــه استعارة ، وقدمت ذكر هذه الأحاديث ومامعها من الالفــاظ المأثورة عن الرجال ، وجعلتها أسسا للكلام وبينـــة لثبــوت الأحكام لتكون منوالا أنسج عليها ماكان حــالا لا محــالا ، وسميتها : « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » . وانما ســميتها بهذه التسمية لأنها تشير الى المقام الأشرف المعــروف منــه « كنت كنزا لا أعرف » .

ويشتمل الكتاب عــلى عدة فصول مكتوبة بأســلوب جذاب واضح نسبيا ، على الرغم من خطورة موضوعاتها ، وغرابة معانيهــا .

ومن موضوعات الكتاب : بيان الفرق بين الاســلام والايمان والاحسان ، وشرح معنى التوبة . والعقبات الست التى لابد من قطعها حتى يصل المرء الى منازل القربات مــع بيان ما يترتب من الفتوح على تخطى كل عقبة . فناء المحب فى المحبوب وطريقة ذلك وعما يتبعه من فيض ، مفسرا قول النبى صلى الله عليــه وســلم ، مخبرا عن الله ســبحانه وتعــالى :

« لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا وفؤادا » ويتحدث فى فصــول عن صلة العبد بربه وبيان حقيقة هذه الصلة وكيفيتها .. الى غير ذلك مختارات من أقواله فى هذا الكتاب :

١ — فى بيان الفرق بين العلم والعمل والحال :

اعلم أن العلم مقدمة ، نتيجتها العمل ، والعمل مقدمة نتيجتها الحال . فالعلم كسبى والعمل كسبى ، والحال وهبى قال الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم ســبلنا »

فالمجاهدات بالعلم والعمل . والهداية مواهب الله تعالى فى الأحوال . وهذا معنى قوله عليه السلام : « من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لا يعلم » فالذى أورثه الله لعبده لم يكن من كسبه ، بل بفضل الله وبرحمته ، وبذلك من الله سبحانه على نبيه عليه السلام ، فقال :

« وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » .

٢ — فى بيان الفرق بين الاسلام والايمان والاحسان :

أعلم أن مراتب السلوك الى منازل الملوك ثلاثة : الاسلام والايمان والاحسان . فالاسلام أول مراتب الدين لعامة المؤمنين . ثم الايمان أول مدارج القلب لخاصة المؤمنين . ثم الاحسان أول معارك الروح لخاصة المقربين .

وقد أورد بعد هذه العبارة تدليلا عليها ، حديث عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لما أتاه جبريل على هيئة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر . . . وجلس اليه يسأل عن الاسلام . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . وأن تقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت الحرام ان استطعت اليه سبيلا » . . ثم سأله عن الايمان . فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) .

ثم سأله عن الاحسان ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » .

ثم قال فى موضع آخر : « فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى هذا الحديث أن أدب السلوك فى خدم الملوك ثلاثة : فالاسلام قيام البدن بوظائف الأحكام ، والايمان قيام

القلب بوظائف الاستسلام ، والاحسان قيام الروح بمشاهدة الملك العلام » .

٣ — وقال يوضح بعض الحالات عند من تخطى العقبات الست :

« هنالك تغيب بما تشاهد من اللطائف الانسية عن الكثائف الحسية ، فاذا ارادك لخصوصية الاصطفائية ، سقاك بكأس محبته شربة تزداد بذلك ظمأ ، وبالذوق شوقا وبالقرب طلبا وبالسكون قلقا » .

وبعد أن روى ابياتا شعرية مناسبة قال :

« فاذا تمكن منك هذا السكر ادهشك ، فاذا ادهشك حيرك . فأنت ههنا مريد . فاذا ادام لك تحيرك اخذك منك وسلبك عنك . فتبقى ثم مسلوبا محذوبا ، فأنت حينئذ مراد ، اذ أنت معه بلا انت ، وعنده بلا أين . مشاهدة بلا كيف .

فاذا فنيت ذاتك وذهبت صفاتك قام بصفاته عن صفاتك ، وببقائه عن فنائك . . وخلع عليك خلعة . « فبى يسمع وبى يبصر » . فيكون هو متوليك ومواليك . فان نطقت فبأذكاره، وان نظرت فبأنواره ، وان تحركت مباقداره . فهنالك ذهبت الاثنينية ، واستحالت البينية . فاذا رسخ قدمك وتمسكن سرك ، وحاد سكرك قلت : « هو » وان غلب وجدك وتجاوز بك سكرك عن حد الثبوت قلت : « أنا » ، فأنت في الأول متمكن وفي الثانى متلون .

ومن هنا أشكل على الأفهام حل رمز هذا الكلام . فقائل يقول « زنديق فيقتل » وقائل يقول « صديق فيحمل » وقائل يقول : مغلوب عليه فيهمل من حيث تحقيق حاله محقق فى علمه . والذى حكم فى قتله مصيب فى حكمه . اذ الشريعة لها حدود ، من تعداها اقيمت عليه الحدود . قال الله تعالى: « تلك حدود الله فلا تعتدوها » والحقيقة لها شهود خارج عن طور هذا الوجود . . .) .

نظراته الفقهية الاجتهادية :

عرفنا الشيخ عز الدين فقيها بارعا وأصوليا نابغة ، ووقفنا على انه بلغ رتبة الاجتهـــاد عـــلى اقوال البعض . ونحاول هنا ان نتلمس هذا الرأى فى ضوء النصوص واقوال سلطان العلماء . ونعطى فكرة عن مميزاته فى فقه الشريعة الاسلامية ، وتعمقه وابتكاره فيها .

نظرية المصالح المرسلة :

« ان المصالح (١) التى ليس لها نص خاص يشـــهد لنوعها بالاعتبار تسمى المصالح المرسلة . وكونها أصـــلا فقهيا موضع نظر بين الفقهاء . وقد ادعى القرافى ان الفقهاء جميعا أخذوا بها ، واعتبروها دليلا فى الجزئيات ، وان انكر أكثرهم كونها أصلا فى الكليات ؛ وقد قال فى ذلك :

« المصلحة المرسلة ، غيرنا يصرح بانكارها ، ولكنهم عند التفريع تجدهم يعللون بمطلق المصلحة ، ولا يطـــالبون انفسهم عند الفروق والجوامع بابداء الشاهد لها بالاعتبار . بل يعتمدون على مجرد المناســـبة ، وهـــذا هو المصـــلحة المرســـلة » .

وسواء أصبحت تلك الدعوى أم لم تصبح ، فمن المؤكد ان اعتبار المصالح التى لا يشهد لها نص خاص بالاعتبار — نظر العلماء اليها يختلف ، فان لم يكن فى أصل الأخذ ، ففى الأقل فى مقدار الأخذ ، كما يحسب القرافى .

« وقد انقسمت اقوال العلمـــاء فى ذلك الى أربعـــة اقســـام :

« القسم الأول » الشافعية ومن نحا نحوهم ، وهؤلاء لا يأخذون بالمصالح المرسلة التى لا يوجد شاهد من الشارع

---

(١) الأستاذ محمد أبو زهرة : مالك ص ٣٩٠ وما بعدها .

باعتبارها ، لانهم لا يأخذون الا بالنصوص والحمل عليها بالقياس الذى يكون أساسه وجود ضابط يضبط مابين الاصل والفرع ، اى ما بين المنصوص عليه ، والملحق به ، وان سايرنا القرافى ، فاننا نقول انه يندر ان يأخذوا بمصلحة مرسلة من غير قياس .

« القسم الثانى » الحنفية ومن شاكلهم ممن يأخذون بالاستحسان مع القياس ، فان الاستحسان مهما يكن قولهم فيه لا يخلو من اعتماد على المصالح المطلقة ، ولو انصفنا الحقيقة لقلنا ان مجىء المصالح فى استنباطهم اكثر من الشافعية ، وان كان القدر فى ذاته قليلا ، حتى لم تحسب تلك المصالح أصلا من اصولهم لندرة اعتمادهم المجرد عليها .

« القسم الثالث » الغلاة فى الأخذ بالمصالح ، حتى قدموا المصلحة على النص فى معاملات الناس ، واعتبروها مخصصة له ، بل اعتبروها مخصصة للاجماع ، اى ان العلماء اذا أجمعوا على أمر بنص ، ووجد مخالفا للمصلحة فى بعض وجوهه قدم اعتبار المصلحة . واعتبر ذلك أيضا تخصيصا ، وقد قال هذا القول الطوفى .

« القسم الرابع » المعتدلون ، وهم الأصح بصرا ، وأولئك اعتبروا المصالح المرسلة فى غير موارد النص المقطوع به ، وأولئك اكثر المالكية » .

واذا كانت تلك اهمية نظرية المصالح وموقف الأئمة منها فما هو دور عز الدين بن عبد السلام فيها ، ولماذا اشتهر بها ؟

يتميز عزالدين بن عبدالسلام هنا بأنه جعلها قاعدة يدير عليها آلاف المسائل الفرعية ، فجعلها ركيزة للاحكام التى

---

(١) وكتب الشيخ عز الدين رسالة فى شرحه ، انظر مؤلفاته .

تفرعت منها ، فأعاد الكثرة الى الوحدة ، وظهـر التشريع الاسلامى متناسقا موحدا لهدف محدد الاتجاه . وتسـمية الكتاب نفسها توحى بذلك ، فهو بعنوان « قواعد الأحكام فى مصالح الأنام » فكأن مصالح الناس هى القاعدة التى يجب أن تدور عليها الأحكام وجودا وعدما ، وليس فى هذا خروج على روح التشريع أو مراميه الحقة ، فذلك مسـتعين بقوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » وبقول الرسول صـلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » .

ويرى عز الدين ان الله سبحانه وتعالى شرع للانسان ما يقوده الى الخير وما يبعده عن الشر . وان وظيفة الانسان هنا أن يمعن فكره حتى يصل الى الاستنتاج السليم الذى هو فطرة فطر الله الناس عليها .

قال ، وهو يبدأ ببيان مقاصد كتاب « قواعد الأحكام »: « والشريعة كلها مصالح : اما تدر مفاسد ، أو تجلب مصالح فاذا سمعت الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا » فتأمل وصيته بعد ندائه ، فلا نجد الا خيرا تحثك عليه ، أو شرا يزجرك عنه، أو جمعا بين الحث والزجر » . ويسـتخرج من الشريعـة شواهد على أن الأحكام قد تبدو متناقضة جريا مـع هـذه القاعدة التى هى جلب المصلحة أو درء المفسدة ، فليس فى الشريعة حكم مطلق الا اذا كانت فائدته مطلقة .

يقول : « اعلم ان الله تعالى شرع فى كل تصرف من التصرفات ما يحصل مقاصده ويوفر مصالحه ، فشرع فى باب ما يحصل مصالحه العامة والخاصة . فان عمت المصـلحة جميع التصرفات شرعت تلك المصـلحة فى كل تصرف ، وان اختصت ببعض التصرفات شرعت فيما اختصت به دون ما لم تختص به . بل قد يشترط فى بعض الأبواب ما يكون مبطلا فى غيره نظرا الى مصـلحة البابين !! ولذلك شرط التوقيت فى الاجارة ، ولو وقع التوقيت فى النـكاح لأفسـده لمنافاتـه لمقصوده .

وكذلك جوز الشرع القراض على عمل مجهول معدوم، وجزء من الربح مجهول معدوم ، اذ لا تحصل فائدة القراض من الطرفين ومصلحته غالبا الا كذلك (1) .

ويحدد عز الدين مصادر التشريع الاسلامى النقلية ، ومجال العقل فيها ، وقاعدة عمله فى النصوص الواردة ، فيقول : (اما مصالح الدارين واسبابها ومفاسدها فلا تعرف الا بالشرع ، فان خفى منها شيء طلب من ادلة الشرع ، وهى الكتاب والسنة والاجماع والقياس المعتبر والاستدلال الصحيح . واما مصالح الدنيا واسبابها ومفاسدها فمعروفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتبرات . فان خفى شيء طلب ادلته ، ومن اراد ان يعرف المتناسبات والمصالح و المفاسد راجحها ومرجوحهما فليعرض ذلك على عقله بتقدير ان الشرع لم يرد به ، ثم يبنى عليه الأحكام فلا يكاد حكم منها يخرج عن ذلك الا ما تعبد الله به عباده ولم يتفهم على مصلحته أو مفسدته » .

ان العبادات لا مجال للعقول فيها ، لأنها فرائض مفروضة من الله تعالى لا تزول ولا تتغير بالزمان والمكان ، اما التشريع الذى يوجه الحياة ، ومصالحها ويحكم فى قضاياها وشئونها ، ويمشى مع الناس فيما يضطربون فيه ويتعاملون ، فمن حق الناس أن يكون لعقولهم فيه مجال وتفصيل وبيان ، ومن بين سنن الخلود والبقاء ان يكون مرنا متطورا مع المد الحضارى والخطو البشرى .

ويشرح عز الدين بن عبد السلام معنى ترك التشريع الدنيوى للعقل فيقول :

« ومعظم مصالح الدنيا ومفاسدها معروف بالعقل ، وذلك معظم الشرع اذ لا يخفى على عاقل قبل ورود الشرع

---

(1) قواعد الاحكام : ج 2 ، ص 137 ، 138 .

ان تحصيل المصالح المحضة ودرء المفاسد المحضة عن نفس الانسان وعن غيره محمود حسن ، وان تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن ، وان درء أفسد المفاسد فأفسدها محمود حسن ، وان درء المفاسد الراجحة على المصالح المرجوحة محمود حسن ، واتفق الحكماء على ذلك ، وكذلك الشرائع . واعلم أن تقديم الأصلح فالأصلح ودرء الافسد فالافسد مركوز فى طبائع العباد نظرا لهم من رب الارباب ، فلو خيرت الصبى الصغير بين درهم ودينار لاختار الدينار » .

ويقول : « ومن تتبع مقاصد الشرع فى جلب المصالح ودرء المفاسد حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصالحة لا يجوز اهمالها ، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها وان لم يكن فيها اجماع أو نص او قياس خاص ؟ فان فهم نفس الشرع يوجب ذلك .

ومثال ذلك ان من عاشر انسانا من الفضلاء الحكماء العقلاء وفهم ما يؤثره ويكرهه فى كل ورد وصدر ثم سنحتا مصلحة أو مفسدة لم يعرف قوله فيها ، فانه يعرف بمجموع ما عهده من طريقته والفه من عادته انه يؤثر تلك المصلحة ويكره تلك المفسدة (1) » ومرة اخرى يؤكد نظريته قائلا :

« ولو تتبعنا مقاصد ما فى الكتاب والسنة لعلمنا ، أن الله أمر بكل خير ، دقه وجله ، وزجر عن كل شر دقه وجله، فان الخير يعبر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد ، والشر يعبر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح .

وقد قال الله تعالى : « ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

هذه هى نظرته الأجتهادية التى فاق بها الأقران .

---

(1) قواعد الأحكام : جـ ١ ص ٢٢ ، ٢٣ .

واستحق بها رتبة الاجتهاد فى كلام البعض ، وامتاز بها فى عصره وبعد عصره .

حريته الفكرية :

كان عز الدين بن عبد السلام حر الفكر ، واسع الأفق ، يقول السيوطى : « ثم كان فى آخر عمره لا يتعبد بالمذهب ، بل اتسع نطاقه وأفتى بما أدى اليه اجتهاده » .

ويبدو هذا واضحا جليا فى كلامه عن الانتقال فى تقليد امام الى تقليد امام آخر ، قال :

« ومن قلد اماما من الأئمة ، ثم أراد تقليد غيره ، فهل له ذلك ؟ فيه خلاف ، والمختار التفصيل . فان كان المذهب الذى أراد الانتقال اليه مما لم ينقض فيه الحكم ، فليس له الا لبطلانه .فان كان المأخذان متقاربين جاز التقليد والانتقال، الانتقال الى حكم (١) يجب نقضه ، **فانه لم يجب نقضه** لأن الناس لم يزالوا من زمن الصحابة الى أن ظهرت المذاهب الأربعةيقلدون من اتفق من العلماء ، من غير نكير من أحد يعتبر انكاره ، ولو كان ذلك باطلا لأنكروه ... وهذا مما لا يرتاب فيه عاقل » .

ويندد بهؤلاء الذين لا يعملون العقل ، ومذهبهم التقليد الأعمى والجمود ، يقول :

ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ امامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا ومع هذا يقلده فيه ، ويترك من الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه ، جمودا على تقليد امامه ، بل يتحلل لدفع ظواهر

---

(١) هكذا فى النسخة المطبوعة ، ولعل الصواب : « الى مذهب يوجب نقضه . »

الكتاب والسنة ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده . وقد رأيناهم يجتمعون فى المجالس ، فاذا ذكر لأحدهم فى مسألة خلاف ما ، وظن نفسه عليه ، تعجب غاية العجب ، من غير استرواح الى دليل ، بل لما ألفه من تقليد امامه ، حتى ظن أن الحق منحصر فى مذهب امامه .

(وهذا) أولى (بالتعجب) من تعجبه من مذهب غيره. فالبحث مع هؤلاء ضائع مفوض الى التقاطع والتدابر من غير فائدة يجديها . وما رأيت أحدا رجع عن مذهب امامه اذا ظهر له الحق فى غيره . بل يسير عليه بضعفه وبعده . فالأولى ترك البحث مع هؤلاء الذين اذا عجز أحدهم عن تمشية مذهب امامه ، قال : لعل امامى وقف على دليل لم اقف عليه ، ولم أهتد اليه . ولم يعلم المسكين أن هذا مقابل بمثله ، ويفضل لخصمه ما ذكره من الدليل الواضح والبرهان اللائح .

فسبحان الله ما أكثر من أعمى التقليد بصره ، حتى حمله على مثل ما ذكر ، وفقنا الله لاتباع الحق أينما كان ، وعلى لسان من ظهر (١) .

وعملا بهذا المبدأ : « اتباع الحق اينما كان وعلى لسان من ظهر » — خالف الامام الشافعى ، امام مذهبه ، فى كثير من الأحيان .

ومن ذلك مسألة تقليد الحاكم المجتهد لمجتهد آخر ، وقد منعه الامام الشافعى وغيره ، وأجازه الامام أبو حنيفة ، وأخذ عز الدين بقول أبى حنيفة .

واحتج له بقوله : « هذا ظاهر متجه اذا قلنا كل مجتهد مصيب » (٢) .

---

(١) قواعد الأحكام : ج ٢ ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .
(٢) نفس المصدر . ج ٢ ، ص ١٠٦ .

وهـو لا يجـامل امامه ولا يترفق فى رد قوله ان لم يوافقه : « فلو ادعى السوقة على الخليفة أو على عظيم من الملوك انه استأجره لكنس داره وسياسة دوابه فان الشافعى يقبله ، وهذا فى غاية البعد ومخالفة الظاهر .. والقاعدة فى الأخبار من الدعاوى والشهادات .. ان ما كذبه العقـل أو جـوزه وأحالته العادة فهو مردود · وأما ما أبعدته العادة من غير احالة فله رتب فى البعد والقرب قد يختلف فيها » (١) ·

وليس من هدفنا أن نحصى المسائل التى خالف فيهـا الشافعى ، ولكننا نتعرض لهذه الأمثلة لدلالتها على تحـرر تفكيره ، وواقعية أحكامه ، وسـلامة حجته ، فمثلا : « اذا اختلف الزوجان فى متاع البيت فادعاه كل واحد منها أو ادعى احدهما الاشتراك فى الجميع فان الشافعى يسـوى بينهمـا نظرا الى الظاهر المستفاد من اليد ، وبعض العلمـاء يخص كل واحد منهما بما يليق به نظرا الى الظاهر المسـتفاد من العادة الغالبة ، وهذا مذهب ظاهر متجه ، فاذا كان الزوج جنديا فادعى انه شريك المرأة فى مغازلها وحقاقها .. وادعت المرأة أنها شريكته فى خيله وسلاحه ·· فاننا نجد فى أنفسنا ظنا لا يمكننا دفعه أن ما يختص بالأجناد للزوج ، وما يختص بالنساء للمرأة » .

هذا قليل من كثير من المسائل تظهر فيها حرية الفكر ، عند عزالدين بن عبدالسلام، واقتداره على مناقشة النصوص واستخراج أسرارها ، وابعاد الزائف منها ، وترجيح ما يقف الواقع والمصـلحة والشرع الى جانبه · وقد عرفناه فقيها شـافعيا لكنه لا يستبعده المذهب ولا يغله التقليد عن البحث الحر ·· من أجل ذلك قيل أنه بلغ مرتبة الاجتهاد ، ومن أجل ذلك أيضا سماه تلميذه ابن دقيق العيد : سلطان العلماء .

---

(١) نفس المصدر : ج ٢ ، ص ١٢ .

اســـلوبه فى الكتابة :

ساد السجع فى أساليب الكتابة العربية ، بعد أن كتب بديع الزمان مقاماته كلها مسجوعة ، وتبعه الحريرى فى ذات الطريق . وقد ساد السجع على وجه اخص فى العصر الذى نتحدث عنه سواء عند الادباء أو العلماء الفقهاء ·

وقد رفض الشيخ عزالدين السجع ولم يستعمله الا نادرا وبلا تكلف . وقد لاحظ ابن العماد الحنبلى هذه الميزة لعز الدين وأثبتها فى ترجمته له فقال : « ولم يلبس سوادا ولا ســـجع خطبته . كان يقولها مترسلا » .

ونحن نجد عنده فى بعض الاحيان أمثلة فى السجع اللطيف ، قال فى رسالته التى كتبها فى عقيدته الى السلطان الاشرف :

« ومن أنكر المنكرات التجسيم والتشبيه ، ومن أفضـــل المعروف التوحيد والتنزيه ، وانما ســـكت السلف قبل ظهور البدع ، فورب السماء ذات الرجع ، والارض ذات الصدع ، لقد تشمر السلف للبدع لما ظهرت فقمعوها اتم القمع ، وردعوا أهلها الردع » .

ويقول فى نهاية هذه الرسالة بعد ما أورد حججه وأفحم خصمه :

« فمن ناضل عن الله ، واظهر دين الله ، كان جديرا بأن يحرسه الله بعينه التى لا تنام ويعزه بعزه الذى لا يضام ، ويحـــوطه بركنـــه الذى لا يـرام ، ويحفظـه من جميع الانام (١) » ·

وفى كتابه « قواعد الاحكام » نرى صورا لهذا السجع غير المتكلف ، الســـهل المشرق · قال بمناسبة ذكر تفصيل

---

(١) طبقات السبكى : ج ٥ ، ص ٨٨ .

الاتقياء الصالحين مصالح الآخرة على مصالح الدنيـــا ، معبرا عن أحوالهم ·

«فسبحان من عرف نفسه لهؤلاء من غير تعب ولا نصب، ولا استدلال ولا وصب · بل جاد عليهم ، وسقاهم خالص دبله وصاف فضله فشغلهم به عما ســـواه ، فلاهم لهم سواه ، ولا مؤنس لهم غيره ، ولا معتمد لهم الاعليـــة ، لعلمهم أنه لا ملجأ الا اليه · فرضوا بقضـــائه ، وصبروا على بلائه ، وشكرو لنعمائه ، يتســع عليهم ما يضـــيق على الناس ، ويضيق عليهم ما يتسع للناس · أو بهم القـــرآن ، ومعلمهم الرحمن ، وجليســـــهم الديان ، وسرا بيلهم الاذعان ، قـــد انقطعوا عن الاخوان ، وتغربوا عن الاوطان بكاؤهم طويل وفرحهم قليل (١) ·

وقد كان لطبيعة الصوفية الرفيقة اثر كبير فى أســلوبه منحيث لطافته ورقته ،وهو لذلك كان كثير الاستشهاد بالشعر فى كلامه ونوه به مترجموه . ويظهر اثر هذه الصوفية فى النص الذى قدمناه بارزا . ويقول فى رسالته المشهورة بـــ « ملحة الاعتقاد » · « والمخاطرة بالنفوس مشروعة فىاعزاز الدين، ولذلك يجوز للبطل من المسلمين ينغمر فى صفوف المشركين· وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة · فمن خشى على نفسه سقط عنه الوجوب ، وبقى الاستحباب ، ومن قال بأن التغرير بالنفوس لا يجـــوز ، فقد بعد عن الحق ونأى عن الصواب · وعلى الجملة فمن اثر الله على نفسه آثره الله ، ومن طلب رضا الناس بما يسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنـــه النـــاس ، ومن طلب رضـا النـــاس بمـــا يســخط الله ســـخط الله عليـــه وأسخط عليـــه النـــاس · وفى

(١) قواعد الاحكام : جـ ١ ، ص٧ ، ٨ .

رضا الله كفاية عن رضا كل أحد .

فليتك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والانام غضاب

واستشهد فى هذه الرسالة القصيرة التى لا تتجاوز سبع صفحات بثلاثة عشر بيتا من الشعر الرقيق الغزلى وشعر الامثال والحكم » (١) .

ويعبر أسلوبه فى الكتابة أصدق تعبير عن شخصيته القوية الصلبة .كتب عند استلامه رسالة شديدة اللهجة من السلطان الاشرف فى نهاية المراسـلات فى فتنة الحنـابلة ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) .

أما بعد أحمد الله الذى جلت قدرته ، وعلت كلمته ، وعمت رحمته ، وسبقت نعمته ، فان الله تعالى قال لأحب خلقه اليه وأكرمهم لديه : « وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله . ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » ، وقد أنزل الله كتبه ، وأرسل رسله لنصائح خلقه ، فالسعيد من قبل نصائحه وحفظ وصاياه ، وكان فيما أوصى به خلقه ، أن قال : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » . وهو سبحانه وتعالى أول من قبلت نصيحته ، وحفظت وصيته . وأما طلب المجلس وجمع العلماء فما حملنى عليه الا النصح للسلطان وعامة المسلمين ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدين ، فقال : الدين ، النصيحة ، قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ورسوله ، وأئمـة المسلمين وعامتهم . فالنصح لله : بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ولكتابه : بالعمل بموجبه ، ولرسوله : باتباع سنته، وللأئمة : بارشـادهم الى أحـكامه والوقوف عند أوامره

---

(١) رضوان الندوى العز بن عبد السلام ، ص ٩٢ .

ونواهيه ، ولعامة المسلمين : بدلالتهم على ما يقربهم اليه ويزلفهم لديه » (١) .

واذا كان اسلوب الكاتب فى الكتابة وطريقة تعبيره يعكس نفسيته وأسلوبه فى الحياة ، فأسلوب الشيخ عز الدين ابن عبد السلام اصدق برهان على ذلك ، وخير دليل على شخصيته القوية ، اللطيفة الرقيقة .

عز الدين بن عبد السلام الشاعر ؟

قال ابن كثير : « كان لطيفا ظريفا يستشهد بالاشعار » .

وذكر السبكى فى طبقاته فى سياق ترجمة ابن عبد السلام أنه انشد لنفسه بيتا على تلاميذه وطلب اليهم أن يميزوه ، وهو :

لو كان فيهم من عراه غرام ... ما عنفونى فى هواه ولاموا

فاجازه شمس الدين عمر بن عبد العزيز بن الفضل الاسوانى قاضى اسوان فقال أبياتا منها :

لكنهم جهلوا لذاذة حسنه ... وعلمتها ولذا سهرت وناموا
لو يعلمون كما علمت حقيقة ... جنحوا الى ذاك الجناب وهاموا

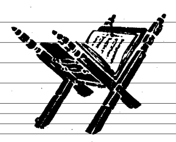
وقد قال السبكى بصدد البيت المذكور : « ولم يكن له من النظم غيره » ولا أدرى هل نفهم من هذه العبارة أن ليس له شعر غيره مطلقا، أو الى ذلك الحين فقط أى حين انشاء البيت لتلاميذه .. نقول ذلك لان للشيخ عز الدين شعرا كثيرا فى كتابه « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » ومنه قوله فى صفحة ١٦ بعد أن شرح كيفية اتصال النار بالماء فيصبح حارا مع بقاء حقيقته السائلة . قال : « ولقد أشرت الى ذلك فقلت :

---

(١) راجع النص الكامل فى طبقات السبكى : جـ ٥ ، ص ٩٠ .

نار المحبة أحرقت أحشـــائى ومدامعى تنهـــل كالانواء
فأنا الحريق بأضلعى وأنا الغـــريق بأدمعى يا منقذ الغرقاء
ومن العجائب أن نار تحرقى تزداد وقدا عنـد فرط بكائى
فالنـار والمـاء القراح تألفا هذا لعمرى أعجب الأشـياء

وله فى الكتاب المذكور أشعار كثيرة على هـــذا النمط وهى متوسطة الجودة وكلها فى التصــوف ، ولذلك نراها كثيرة المجازات خفية الكنايات كثيرة الرموز والاشارات (١) ونلخص من ذلك كله الى القــول بأن الشيخ عز الدين كان ينظم الشعر ، ولكن شعره كان متوسط الجودة ٠



---

(١) محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والادبى ، المجلد ٣ ، جـ ٢ ص ١٩٤

الفصل الرابع

المواقف الحاسمة فى حياته



كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام رجلا شـعبيا ، عاش كما يعيش ابناء الشعب ، وشـــارك الجماهير في آلامها وآمالها ٠٠ وجند نفسه لمكافحة الرذيلة في كافة صــورها : رذيلة التعصب والميل مع الهوى ، ورذيلة الخيانة لله ولرســـوله ولجماعة المســلمين ، ورذيلة الافتيات على الشريعة وحكم الله في الارض ٠ قاوم ذلك كله في الحكام وفيمن ســـار في ركابهم من العلماء والوزراء ، واحتمى بانه على الحــق وانه للحــق يدعو دون مأرب شخصي ، وتذرع بثقة الشعب فيه وحبه له ٠ فكان له النصر في جولاته جميعا ٠

وسنتحدث في هذا الفصل عن المواقف الحاســـمة في حياته :

١ ـ فتنة الحنابلة :

حدثت هذه الفتنة في عصر الســلطان الاشرف ابن الملك العادل الايوبي في دمشق ٠ اشــار الى هذه الفتنة الذهبي فقال : « كان للاشرف ميل الى المحــدثين والحنابلة ، وفي عصره حصلت فتنة بين الحنابلة والشافعية بسبب العقائد ٠

---

(١) سير النبلاء : ج ٢٠ ص ٢٩٤

وتعصب الشيخ عز الدين بن عبد السلام على الحنابلة ، وجرت خبطة « كتب عز الدين الى الاشرف ٠٠ »

ونجد اشارة اخرى عند الكتبى الذى اقتضب الحادثة كلها بقوله : « ولما كان بدمشق سمع من الحنابلة اذى كثيرا رحمه الله » ٠

والسبكى هو الوحيد الذى نقل لنا اخبار هذه الفتنة بتفصيل واسهاب عن ولد الشيخ عز الدين ٠ بيد انه لم يحدد لنا تاريخ وقوعها ٠ وكل ما نستطيع القول به انها حدثت قبل سنة ٦٣٥ هـ اذ فيها توفى الاشرف ٠ ولعلها وقعت فى نهاية السنة نفسها قبيلوفاة الاشرف ٠ وشعرنا بذلك طريقة الراوى « شرف الدين بن عز الدين » فى سردها ٠

كان السلطان الاشرف ٠٠ يميل الى الحنابلة والمحدثين وقد أنشأ لهم دار حديث حسنة ٠ وبيان ذلك ان جماعة من مبتدعة الحنابلة الذين يقولون بأن لله سبحانه وتعالى حرفا وصوتا ، قرروا فى ذهن السلطان الاشرف أن الذين هم عليه اعتقاد السلف ، وانه اعتقاد أحمد بن حنبل رضى الله عنه وفضلاء اصحابه ، واختلط هذا بلحم السلطان ودمه ٠ وصار يعتقد ان مخالف ذلك كافر حلال الدم (١) » ٠

وكان السلطان يحترم الشيخ عز الدين ويعظمه عندما عرف مكانته العلمية ، وحرصه على أمور الدين ، وقيامه بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وصار السلطان يلهج بذكره ، ويؤثر الاجتماع به ، والشيخ لا يجيب الى الاجتماع ٠

وحقد هؤلاء المبتدعة على الشيخ عز الدين لمنزلته لدى

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ج ٥ ، ص ٨٥

الاشرف وخشوا منه على منزلتهم ، فوشـوا به الى الاشرف وقالوا : « انه اشـعرى العقيدة ، يخطىء من يعتقد الحرف والصـــوت ويبدعه · ومن جملة اعتقاده انه يقول : يقول الاشعرى : ان الخبز لا يشــبع ، والماء لا يروى ، والنار لا تحرق » · فاستهال ذلك السلطان واستعظمه ، ونسبهم الى التعصب عليه · فكتبوا فتيا فى مسألة الكلام وأوصـلوها اليه ، وهدفهم ان يكتب عليها الشـــيخ عز الدين بعقيدته الاشعرية ، وعندئذ يغضب عليه السلطان وتسـقط مكانته عنده فلما سـمع الشيخ عز الدين بهذا الخبر وجاءته الفتيا قال :

« هـذه الفتيا كتبت امتحـانا لى والله لا كتبت فيهـا الا ما هـو الحق » ·

وكتب عز الدين بن عبد السلام رسالته الصريحة القوية ـ التى عرفت « بعقيدة عز الدين أو ملحة الاعتقاد (٢) أعلـن فيها عقيدة جمهور أهل السنة ، وبين حقيقة وسلامة موقفهم ، داحضا أقوال المبتدعين المخالفين ·

والتقط الحنابلة المبتدعون رسـالة عز الدين ، وهم فى فرح وغبطة ، لاعتقادهم أن هذه الرسـالة أو الفتيا كفيلة بهـلاك الشيخ واستباحة دمه ، عندما يقرأها السـلطان الأشرف ·

وهـكذا كان ·· اذ لما اطلع السـلطان عليها استشاط غضبا وقال :

« صح عندى ما قالوه عنه · وهـذا رجل كنا نعتقد أنه متوحد فى زمانه فى العلم والدين ، فظهر بعد الاختبار أنه من الفجار ، لا بل من الكفار » ·

---

(١) وهى منشـورة باكملهـا فى طبقات السبكى : ج ٥ ، ص ٨٥ ـ ٩٢

وهكذا نجح الحنابلة فى مؤامرتهم وأثاروا الأشرف على الشيخ عز الدين · ووقف علماء دمشق موقفا سلبيا من هذه الحادثة مجاملة للسلطان الأشرف · ولم يجرؤ واحد منهم على الدفاع عن عز الدين اللهم الا شيخ المالكية والحنفية وهما الشيخ العلامة جمال أبو عمرو بن الحاجب المالكى ، والشيخ العلامة جمال الدين الحصيرى ·

ويصور لنا ولد الشيخ عز الدين موقف علماء دمشق من هذه القضية ، فيقول «١» ·

« وكان ذلك فى رمضان عند الافطار ، وعنده على سماطه عامة الفقهاء من جميع الأقطار ، فلم يستطع أحد منهم أن يرد عليه · بل قال بعض أعيانهم : السلطان أولى بالصفح والعفو ، ولاسيما فى مثل هذا الشهر · وموه آخرون بكلام موجه ، يوهم صحة مذهب الخصم ويظهرون أنهم قد أفتوا بموافقته ·

فلما انفضوا تلك الليلة من مجلسه بالقلعة ، اشتغل الناس فى البلد بما جرى فى تلك الليلة عند السلطان · وأقام الحق سبحانه وتعالى الشيخ العلامة جمال أبا عمرو ابن الحاجب المالكى فى هذه القضية · ومضى الى القضاة والعلماء الاعيان الذين حضروا هذه القضية عند السلطان ، وشدد عليهم النكير · وقال : العجيب ! أنكم كلكم على الحق وغيركم على الباطل ، وما فيكم من نطق بالحق · وسكتم ، وما انتصرتم لله تعالى وللشريعة المطهرة · ولما تكلم متكلم منكم قال : « السلطان أولى بالعفو والصفح ، والاسيما فى مثل هذا الشهر » وهذا غلط يوهم الذنب · فان العفو والصفح لا يكونان الا عن جرم وذنب · أما كنتم سلكتم طريق التلطف باعلام السلطان بان ما قاله ابن عبد السلام

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : جـ ٥ ، ص ٨٥ ومابعدها .

مذهبكم ومذهب أهل الحق ، وان جمهور السـلف والخلف على ذلك ولم يخالفهم فيه الا طائفة مخذولة ، يخفون مذهبهم

ويدسونه على تخـوف الى من يستضعفون علمه وعقله • وقد قال الله تعالى :

« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون »•

ولم يـزل يعنفهم ويوبخهم الى أن اصطلح معهم على أن يكتب بصورة الحال ، ويكتبوا بموافقة ابن عبد السـلام ، فوافقوه على ذلك وأخذ خطوطهم بموافقته •

ثم طلب عز الدين من السلطان بعد ذلك أن يعقد منـاظرة بين الشـافعية والحنابلة ويحضرها غيرهما من علمـاء المسلمين • وكتب اليه يقول :

« ان العلماء الذين حضروا مجلس السلطان وافقوا كتابيا على فتياه ، وأنهم لم يمكنهم ذلك بحضرة السلطان فى ذلك الوقت لغضبه ، وما ظهر من حدته فى ذلك المجلس • والذى نعتقد فى السلطان أنه اذا ظهـر له الحق رجع اليه • وأنه يعاقب من موه بالباطل عليـه ، وهـو أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل ، فانه عزر جماعة من أعيـان الحنابلة تعزيزا بليغا رادعا • وبدع بهم وأهانهم » •

وكانت رسالته هذه ، ومطالبته السـلطان الأشرف بعقد المنـاظرة شرارة أخرى ، ألهبت السـلطان وأخرجته عن طوره • فرد فى الحال على الشيخ وكتب بخط يده :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصل الى ما التمسه الفقيه ابن عبد السـلام ـ أصلحه الله ـ من عقد مجلس وجمع المفتين والفقهاء • وقد وقفنا على خطة وما أفتى به • وعلمنا من عقيدته ما أغنى عن الاجتماع به • ونحن نتبع ما عليـه الخلفاء الراشدون الذين قال صلى الله عليه وسلم فى حقهم : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » •

وعقائد الأئمة الأربعة فيها كفاية لكل مسلم يغلب هواه ، ويتبع الحق ، ويتخلص من البــدع ، اللهم ان كنت تدعى الاجتهاد ، فعليك أن تثبت ليكون الجواب على قدر الدعوى ، لتكون صــاحب مذهب خامس ٠ وأما ما ذكرته عن الذى جرى فى أيام والدى تغمده الله برحمته فذلك الحال أنا أعلم به منك ، وما كان له سبب الا فتح باب السلامة لامر دينى ٠

وجـرم جـره ســفهاء قـوم
فحـل بغير جانبه العــذاب

ومع هذا فقد ورد فى الحــديث : « الفتنة نائمة لعن الله مثيرها » ٠ ومن تعرض لاثارتها قاتلناه بما يخلصنا من الله تعالى ، وما يعضد كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليـه وســلم » ٠

ولما وردت هذه الرسالة الى عز الدين قرأها وطـواها ، وآثر أن يتريث بعض الوقت لعل الموقف ينكشــف عن جديد فقال للرسول : « قد وصلت ، وقرأتها وفهمت ما فيهــا ، فاذهب بسلام » ٠ ولكن كان السلطان قد أراد التحــدى ، اذ قال الرسول : « قد تقدمت الأوامر الســلطانية باحضار جوابهــا » ٠

وهنا كانت ثورة رجل لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولم يقبل لحظة أن يدافع عن نفسه وظهره الى الحائط ، فبرز الى الميدان متحديا من تحداه ، وارتجل رسالة أقوى وأشــد صراحة ردا عليه ٠ بدأها بصوت الحق الهادر :

« فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » ٠

وختمها بهتاف المؤمن المجاهد الصابر : « وبعد ذلك نزعم انا من جملة حزب الله وأنصار دينه وجنده ، وكل جنــدى لا يخـاطر بنفسه فليس بجنــدى »[1] ٠ وتخلل ذلك الجهر

---

(1) راجع الرســالة بأسرها فى طبقات السبكى : ج ٥ ، ص ٩٣ - ٩٥

بعقيدته وما عليه جمهــور أهل الســنة ، محتجا بالادلة والبراهن ٠

ويصور لنا ابنه هذا المشهد مرة أخرى ، فيقول : « وكان يكتبها وهو مسترسل من غير توقف ولا تردد ٠ فلما انتهى من كتابتها طواها وختمها ودفعها الى الرسول ٠ وكان عنده حال كتابتها رجل من العلماء ٠ الفضلاء ، ممن يحضر مجلس السلطان ، فوقفه على الرفعة التى وردت من السلطان فتغير لونه ، واعتقد أن الشيخ يعجز عن الجواب لما شاهد فى ورقة السلطان من شديد الخطاب ، فلما خط الشــيخ مسترسلا عجلا ، وهو يشاهد ما يكتبه بطل عنه ما كان يحسبه ، وقال له ذلك العالم : لو كانت هذه الرســالة التى وصــلت اليك وصلت الى قس بن ســاعدة لعجز عن الجــواب وعــدم الصواب ، ولكن هذا تأييد الهى » ٠

كان الموقف دقيقا خطرا ، فزع منه الناظر المشــاهد ٠ وخشى سوء العاقبة ، بيد أن الشيخ عز الدين لم يفــزع ، وأبى الا أن يعــلن ما يراه الحق صريحا قويا ، غير مبــال بما يخفيه له مواجهته وصموده لتحدى سلطان عنيد ناقم ، من مؤكد المحنة والبلاء ٠

وكانت المحنة والبــلاء ، فعندما قرئت الرســــالة على السلطان ، عظم غضبه ، وتيقن العدو تلف الشيخ وهلاكه ٠ ووجه الأشرف وزيره الغرز خليلا حاملا اياه حكم الاضطهاد بأن لا يفتى أحــدا ، ولا يجتمع بأحــد ، وأن يلــزم بيته ٠٠ وأبلغه الوزير هذا الحكم بالاقامة الجبرية أو شــبه الحبس بغاية تأدب وحســن ابــلاغ ، متأســفا على تجنب الشــيخ الاجتماع بالســلطان ، لأنه كان يحب الشــيخ ويعتقد فى رجحان علمه ودينه ٠

ولم يكن هــذا الحــكم القاسى مفاجأة له ، وكأنه كان ينتظره ، بل رآه بشرى له واستقبله ببشر وترحاب ٠

قال : « يا غرز ! ان هــذه الشروط من نعم الله الجزيلة

على ، الموجبة للشكر لله تعالى على الدوام · أما الفتيا فانى كنت والله متبرما بها وأكرهها · واعتقد أن المفتى على شفير جهنم ، ولولا اعتقادى أن الله أوجبها على فى هذا الزمان لما كنت تلوثت بها ، والآن فقد عذرنى الحق ، وسقط عنى الوجوب ، وتخلصت ذمتى ، ولله الحمد والمنة · وأما ترك اجتماعى بالناس ولزومى البيت ، فما أنا فى بيتى الآن · وانما أنا فى بستان ، ومن سعادتى لزوم بيتى ، وتفرغى لعبادة ربى · والسعيد من لزم بيته ، وبكى على خطيئته واشتغل بطاعة الله تعالى · وهذا تسليك من الحق ، وهدية من الله تعالى الى ، أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان · والله ، يا غرز ! لو كانت عندى خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعت عليك ، ونحن على الفتوح ، خذ هذه السجادة ، وصل عليها ، فقبلها وقبلها » ·

وبهذا الموقف الرائع فوت الشيخ عز الدين على السلطان أن يحس باحساس النصر الذى حمل خصمه على تجرع ما لا يحب ، بل لعله كان يسخر من السلطان ويرمز الى هذا المعنى نفسه حين قال :

« أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان » مما دهش له الأشرف فتساءل :

« قولوا ما أفعل به ؟ هذا رجل يرى العقوبة نعمة » !·

وبقى الشيخ عز الدين فى هذه الاقامة الجبرية ، فى بستانه البعيد عن العمران برهة من الزمن الى أن قيض الله له رجلا ليدافع عنه عند السلطان وينتصر له ·

يقول ولده : « ثم ان الشيخ جمال الدين الحصيرى ، شيخ الحنفية فى زمانه ـ وكان قد جمع بين العلم والعمل ـ ركب حمارا له ، وحوله أصحابه ، وقصد السلطان · فلما بلغ الملك الأشرف دخول الحصيرى الى القلعة أرسل اليه خاصته يتلقونه ، وأمرهم أن يدخلوه الى دار الامارة راكبا

على حماره ، فلما راه السلطان ، وثب قائما ومشى اليه ، وانزله من حماره ، وأجلسه على تكرمته ، واستبشر بوفوده عليه ، وكان فى رمضان ، قرب غروب الشمس · فلما دخل دخل وقت الغروب ، واذن المؤذن صلوا صلاة المغرب ، وأحضر للسلطان قدح شراب ، فتناوله وناوله للشيخ ، فقال له الشيخ : « ما جئت الى طعامك وشرابك » · فقال له السلطان : « يرسم الشيخ ونحن نمتثل مرسومه » فقال له : ايش بينك وبين ابن عبد السلام ، وهذا رجل لو كان فى الهند أو فى أقصى الدنيا كان ينبغى للسلطان أن يسعى فى حلوله فى بلاده ، لتتم بركته عليه وعلى بلاده ، ويفخر به على سائر الملوك » ·

قال السلطان : « عندى خطة باعتقاده ، فى الفتيا ، وخطة أيضا فى رقعة فى جواب رقعة سيرتها اليه ، فيقف الشيخ عليها ، ويكون الحكم بينى وبينه » ·

ثم أحضر السلطان الورقتين وقرأهما الى اخرهما : فقال الشيخ الحصيرى : « هذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ويقين المؤمنين وكل ما فيهما صحيح ، ومن خالف ما فيهما ، وذهب الى ما قاله الخصم من اثبات الحرف والصوت فهو حمار » ·

فقال السلطان : « ونحن نستغفر الله مما جرى ونستدرك الفارط فى حقه · والله لأجعلنه أغنى العلماء » ·

وأرسل الى الشيخ واسترضاه وطلب محاللته ومخاللته »·

ويحدثنا الراوى : « ان الحنابلة كانوا انتصروا على أهل السنة وعلت كلمتهم ، بحيث أنهم صاروا اذا خلوا بالأشعرية فى المواضع الخالية ، يسبونهم ويضربونهم ويذمونهم ، فعندما اجتمع الشيخ الحصيرى بالسلطان ، وتحقق هو ما عليه الجم الغفير من اعتقاد أهل الحق تقدم الى الفريقين بالامساك عن الكلام فى مسألة « الكلام » وأن لا يفتى فيها أحد بشىء ، سدا لباب الخصام ··· فانكسرت المبتدعة بعض الانكسار ، وفى النفوس ما فيها » ·

وإذا كان النصر الذى تم للشيخ عز الدين فى هذه المرحلة نصرا صامتا سلبيا ، فقد كان انتصاره واضحا وعلميا فى مرحله الأخيرة حين قيض الله له من ينصـــــره من ذوى الســـلطان ٠

فقد كان الملك الكامل (أخو الأشرف) أكبر ســـلاطين الاسرة وسلطان مصر قشعريا متعصبا ، ومن هنا فقد تتبع تطـورات المناقشـــة المثيرة ووقف على غايتها ، وظل على صمته الى أن زار دمشق ، فسأل أخاه عما تم فيما جـــرى بين الشافعية والحنابلة من خصام بسبب مسألة الكلام ٠

فقال الأشرف : « يا خوند ! منعت الطائفتين من الكــلام فى مسألة الكلام ، وانقطع بذلك الخصام » ٠

فقـــــال الكـــامل : « والله ! مليح ، ما هذه السياسة والسلطنة ؟ تساوى بين الحق والباطل وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن يكتموا ما أنزل الله عليهم ! ٠

كان الطريق أن تمكن أهل السنة من أن يلحنوا بحججهم ، وأن يظهروا دين الله ، وأن تشنق من هؤلاء المبتدعين عشرين نفسا يرتدع بهم غيرهم ، وأن تمكن الموحدين من ارشـــــاد المسلمين وأن يبينوا لهم طريق المؤمنين » ٠

وهنا تم انتصار الشيخ عز الدين ، وانخذل الفريق الآخر وسكت صوتهم ، وارتد السلطان من كراهة الشيخ وغضبه عليه الى حبه له ، واكرامه اياه ٠ وصرح بخجله وحيـائه من الشيخ وقال :

ـ « لقد غلطنا فى حق ابن عبد الســلام غلطة عظيمة » وصار يترضاه ويعمل بفتاويه ، وما أفتـــاه ، وقرئت عليــه « مقاصد الصـــلاة » ـ رســـالة عز الدين ـ فى يوم ثلاث مرات وكلما دخل عليه أحد من خواصه يقول للقارىء :

« اقرأ مقاصد الصلاة لابن عبد السلام حتى يسمعها فلان ينفعه الله بسماعها » ٠

وقد بلغ من عناية السلطان بهذه الرســالة ، ارضـــاء لعز الدين وتلافيا لما فرط فى حقه ، أنه لما زاره واعظ الزمان والمؤرخ الكبير أبو المظفر ســــبط بن الجـــوزى أعطاه اياها قائلا :

— « طرز مجلسك الآتى بها » ·

وهكذا انتهت الفتنة بعد اضطهاد وعسـف وتنكيل ، الى استرضاء ، وتقدير وتفطيم ، بيد أن الشــيخ عز الدين لم يستغل عاطفة السلطان هذه فى مصــالحة الذاتية ، ومآربه الشخصية ، وبقى كمـــا كان بعيدا عن بلاطه الى أن مرض الســلطان ، فعــاده على طلب منه ، فى مرضه ، ووجهه توجيهات مخلصة وقدم نصــائح وارشادات ، وكان لهـذا تأثير حسن فى نفس السلطان ، اذ سمع للشيخ ، وأصـــدر أوامره بابطال بعض المنكرات التى أشار اليها الشـــيخ فى الحال ·

ومن الســهل أن نبين الأثر الذى تركه موقف الشـــيخ عز الدين من هذه الفتنة ، الصلب ، الصريح ، الصــادق ، سواء فى نفوس العلماء من معاصريه الذين انكشف معدنهم الزائف ، وقلوبهم الضعيفة ، وعلمهم الواهن ، الذى وهنت به نفوســهم ، فلم يجسر أحـــدهم على أن يجهر بما يعتقد وانما راوغ أو نافق ، فاذا بهم يرون انتصار الحق ، وهكذا يأخذون درسا فى الصدق والاخــلاص والشجاعة الادبية ، وسواء فى نفوس السلاطين ، فالأشرف قد تغير من كراهية وعداوة لعز الــدين الى حب واصـــغاء اليه ، وكذلك الملك الكامل الذى تأثر به ، فدافع عنه وهكذا من جاء بعدهما من الســلاطين والملوك ·

٢ — تحالف الصالح اسماعيل والصليبيين :

توفى الملك الأشرف فى سنة ٦٣٥ هـ وخلفه أخـــوه الملك الصالح اسماعيل على سلطنة دمشق · ونشـــأ بينه وبين

ابن أخيه الصالح نجم الذين أيوب خلاف ، لأن اسـماعيل حارب والـد نجم الـدين ، ثم وثب بعد موته عـلى حـكم دمشـق ٠

وقد خاف اسماعيل من نجم الدين على جكمه ، فتحـالف مع الفرنج الصليبيين أعداء الدين والوطن ليساعدوه عـلى نجم الدين ، وتنازل لهم فى نظير ذلك عن صفر والثقيف ، واقتسم معهم صـيدا وطبريا وملحقاتها ، وجزءا كبيرا من الساحل الفلسطيني الذى كانت له السيطرة عليه !!

وقد أعطاهم هذه الأجزاء دون غيرها لأنهـا تمثل خـط الـدفاع الأول فى وجه نجم الـدين اذا ما فكـر فى غـزو دمشـق ٠

ومضى الصالح اسماعيل فى خيانته الى اخر الشـوط ، اذ أباح للصليبيين دخول دمشـق وشراء السـلاح والميرة منها !٠

وهنا ثار الرأى العام الاسـلامى وذهب المسلمون الى العلماء واستفتوهم فى ذلك ، فأفتى الشيخ عز الدين بتحريم بيع السلاح للصليبيين ٠ ولم يكتف الشيخ باصدار الفتوى فحسب ، بل قام بقطع الدعاء للسلطان من الخطبة ، وصار يحث الناس على الجهـاد ومقاطعة الصليبيين ، مهاجما السلطان لتعاونه مع أعداء الوطن ، وحرص على ترويد هذا الدعاء بعد فراغه من الخطبتين :

« اللهم أبرم لهذه الأمة ابرام رشد ، تعز فيه أولياءك وتذل فيه أعداءك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك » ٠

والناس يضجون بالدعاء ٠

وكان الصالح اسماعيل غائبا عن دمشق ، فكاتبه أعوانه بما حدث ، فورد كتابه بعزل الشيخ عز الدين بن عبدالسلام عن الخطابة واعتقاله هو والشـيخ ابن الحاجب المالكى ، لأنه رفع صوته فى الانكار عليه مع عز الدين ، فاعتقلا ٠

« ثم لما قـــدم اسماعيل الى دمشـــق أفرج عنهما والزم ابن عبد الســـــلام بملازمة داره ، والا يفتى ، ولا يجتمع بأحد البتة ، فاستأذنه فى صـــلاة الجمعة ، وأن يعبر اليه طبيب أو مزين « حـــلاق » اذا احتـــاج اليهما ، وأن يعبر الحمام ، فأذن له فى ذلك »(١) .

ان الشيخ عز الدين فى هـــذا الموقف البطولى الرائع لم يهن ولم يضعف ولم يتردد بل كان جريئا فى رفع راية الحق أمام سلطان خائن تعاون مع أعـداء الوطن والدين من أجل الحفـــاظ على عرشه .

ولم يكن بالامكان أن يواصل الشيخ عز الدين رسالته وهو فى هذه العزلة الجبرية المفروضة عليه فعزم على أن يهاجر من دمشق الى بلاد يستطيع فيها القيام بواجبه العلمى والعملى بحرية وانطلاق ، ووقع اختياره على مصر . فخرج من دمشق فى اواخر سنة ٦٣٨ هـ وكان معه زميله الشيخ ابن الحـــاجب المالكى .

ويصف ابنه الشيخ عبد اللطيف ما حدث له فى طريقـــــه الى مصر فيقول :

« ... واخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات ، فأقام مدة بدمشق ، ثم انتزح منها الى بيت المقدس ، فوافاه الملك الناصر داود فى الغور فقطع عليه الطريق ، واخذه ، وأقـــام عنده بنابلس مدة ، وجرت له معه خطوب ، ثم انتقل الى بيت المقدس حيث اقام مـــدة .

ثم جاء الصالح اسماعيل والملك المنصور صاحب حمص ، وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم الى بيت المقـــدس ، يقصدون الديار المصرية ، فسير الصالح اســـماعيل بعض خواصه الى الشيخ بمنديله ، وقال له :

---

(١) طبقات الشـــافعية الكبرى : ج ٥ ، ص ١٠١

— « تدفع مندیلی الى الشيخ ، وتتلطف به غاية التلطف ، وتستنزله وتعده بالعودة الى مناصبه على أحسن حال . فان وافقك فتدخل به على ، وان خالفك فاعتقله فى خيمة الى جانب خيمتى » .

فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع فى مسايسته وملاينته ، ثم قال له :

— بينك وبين ان تعود الى مناصبك ، ما كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسطان وتقبل يده لا غير .
فقال الشيخ :

— والله ! يا مسكين ! ما أرضاه أن يقبل يدى فضلا عن ان أقبل يده . يا قوم أنتم فى واد وانا فى واد . والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به .
فقال :

— قد رسم لى أن توافق على ما يطلب منك ، والا اعتقلتك .

فقال الشيخ :
— افعلوا ما بدا لكم . .
فأخذه واعتقله فى خيمة الى جانب خيمة السلطان » (١)
ويذكر راوى القصة هنا لفتة تدل على تقدير الاعداء للشيخ عز الدين . قال : « وكان الشيخ يقرا القرآن ، والسلطان يسمعه ، فقال يوما للملوك الفرنج :

— تسمعون هذا الشيخ الذى يقرا القرآن ؟
فقالوا :
— نعم .
قال :

---

(١) طبقات السبكى : ج ٥ ،ص ١٠١

ــ هذا أكبر قسوس المسلمين ، قد حبسته لانكاره على تسليمى لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطابة بدمشق، وعن مناصبه ، ثم أخرجته ، فجاء الى القدس ، وقد جددت حبسه واعتقاله لاجلكم .

فقالت ملوك الفرنج :

ــ لو كان هذا قسيسنا لقتنا بين يديه فغسلنا رجليــــه وشربنا ماء غسلهما ! » ولم ينج الشيخ عز الدين من أسر الصالح اسماعيل الى بعد أن جاءت الجيوش المصرية الى القدس . وانهزم اسماعيل وحلفاؤه فى الحرب ، وقتــــلوا وهربوا . وبعده واصل الشيخ سيره الى مصر ، فوصــــل الى القاهرة فى سنة ٦٣٩ هـ . وبدأ هناك مرحلة جديدة من حيـــــــاته .

٣ ــ بيع أمراء الدولة المماليك فى المزاد :

كان هؤلاء المماليك الاتراك ذوى نفوذ وقوة فى بلاط الدولة المصرية أيام الصالح نجم الدين أيوب ، وقد قال المؤرخون ، ان الملك الصالح أسرف فى شراء المماليك الاتراك وأســـكنهم فى قلعة الروضة ، وأخذ بعد ذلك يعتقهم ويجعل منهم امراء يتسلطون على رقاب الناس ، ويكثر منهم الاذى والشر ، حتى قال فى ذلك شاعرهم :

الصـــالح المرتضى أيوب اكثر من
ترك بدولته يا شر مجـــــلوب
قد أخـــذ الله أيــوبا بفعلته
فالنـــــاس كلهم فى ضر أيوب

ويرجع تاريخ نفوذ المماليك الاتراك السياسى وقوتهم فى الدولة الاسلامية الى أمد بعيد فى التاريخ ، الى العصر العباسى الاخير ، اذ كانوا يديرون دفة الحـــــكم من وراء عرش الخـــلافة .

وعندما وصل الشيخ عز الدين الى مصر ، عهد اليه سلطانها الصالح نجم الدين بمنصب رئاسة القضـــاء بها ، وهؤلاء

المماليك فى أوج قوتهم ، ويلقبون بـ « الامراء » وبعـــدما تسلم الشيخ عز الدين منصبه ، نظر فى الامور القضائيـــة الشرعية نظرة اصلاح . فظهر له ان أولئك المماليك مازالوا عبيدا أرقاء من الوجهة الشرعية القضائية ، ولم يثبت عنـده انهم نالوا الحرية حسب الاجراءات الشرعية ، فحكم عليهم.

بأنهم من أملاك بيت مال المسلمين ، واذا أرادوا الحـــرية فلابد من بيعهم ، اذ هم ليسوا بأحرار ، فلا يجـوز لهم من الناحية الشرعية أن يتصرفوا تصرف الاحـرار فى مجالات الحياة المختلفة ، حسب ما هو منضبط فى الفقه .

فبدأ الشيخ عز الدين يبطل أنواع العقود التى يعقدونهـا من بيع وشراء وزواج وطلاق وما اليها ، فتعطلت مصالحهم بذلك ، ولحقهم أذى كبير ، مع أنهم سادة الناس وحـــكام الارض !

وكان من جملة هؤلاء نائب السلطنة فاشتد غضـبا وثار وهاج ، واجتمع القوم وارسلوا الى الشيخ يستفسرونه ماذا ينوى بهم ، فأتى اليهم من الشيخ جواب صريح : « نعقـــد لكم مجلسا ، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصـل عتقكم بطريق شرعى » .

ولم يقتنع الامراء بهذا الرأى ورفعوا الامر الى السلطان، طالبين تدخله ، وموقنين أن هذا التدخل سيكون فى جانبهم ، وان السلطان سيحمل الشيخ على التنازل عما يعتزم .

وطلب السلطان من الشيخ أن يتركهم وشأنهم . فلم يرجع الشيخ عن حكمه وصمد فى موقفه ، وأصيب بذلك السلطان فى كبريائه وعظمته ، وجرت على لسانه كلمة ضد الشـــيخ عنيفة ملؤها النقمة والسخط ، وحاصلها ان الشيخ لا يجوز له أن يحكم هذا الحكم القاسى على امراء دولته ونائب سلطنته وهو أمر لا علاقة له به ، وهو بذلك يتجاوز صلاحيته .

ومرة أخرى لجأ الشيخ عز الدين الى سـلاح قوى ، الانسحاب الهادىء من غير ضجة أو اثارة تعطى الخصـم فرصة للانتقام ، لكن اذا كان الشيخ لا يستطيع أن يقيم حكم الله فى مصر على عباد الله كلهم فانه يرفض أن يعيش فى بلد لا يقيم شريعة الله سبحانه وتعالى . واذا كان السـلطان ــ حامى الحقوق ــ يتدخل لابطال الحقوق ، فليس عز الدين الذى يرضى باستذلال المنصب وتحكم الجاه ، وليس من حق احد ان يجبره على الاقامة فى بلد لا يرتضيه .

وهكذا خرج الشيخ من القاهرة ، وحمل أمتعته عـلى حمار ، وركب عائلته على حمير آخر ، وسار مترجلا خلفهم ، قاصدا الشام ، فلم يصل الى نحو نصف «بريد» الا وقد لحقه غالب المسلمين لم تكن امرأة ولا صبى ولا رجل لا يؤبه اليـه يتخلف لاسيما العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم . وبلغ ذلك السلطان ، وقيل له :

ــ « متى راح ذهب ملكك »

فركب السـلطان بنفسـه ، ولحقه ، واسترضـاه ، وطيب خاطره ، فرجع واتفق على ان ينادى على الامـراء فى المـزاد .

وحاول نائب السلطنة مرة اخرى اقناع الشيخ عز الدين بالعدول عن رأيه ، بيد أن القاضى العادل لم يتراجـع عن حكمه ، وعند ذلك فقد نائب السلطنة صوابه من شدة الغيظ وصاح فى كبرياء وخيلاء :

ــ « كيف ينادى علينا هذا الشيخ ، ويبيعنا ونحن ملوك الارض ! والله لاضربنه بسيفى هذا »

فركب بنفسه وأخذ معه جماعته ، وجاء الى بيت الشيخ والسيف مسلول فى يده ، وطرق الباب ، فخرج ولد الشيخ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، فعاد الى أبيه يخبره وهو خائف على والده فقال الشيخ فى ثقة راسخة لا يتسرب اليها شـك :

ـــ ياولدى ! ابوك اقل من أن يقتل فى سبيل الله .

وظهر الشيخ على الباب ، واستقبل نائب السلطنة ، وظهر أثر شخصية عز الدين القوية المهابة ، التى تفرض احترامها على الاخرين ، لان صاحبها قد ساوى بين الحياة والموت ، ولم يساو بين الحق والباطل ، فكسب بذلك قوة لا تعدلهـــا قوة . « وحين وقع بصره على النائب يبست يد النـــائب ، وسقط السيف منها ، وارعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال :

ـــ يا سيدى ، ايش تعمل ؟

قال الشــــــيخ :

ـــ أنادى عليكم وابيعكم .

فسأل نائب السلطنة :

ـــ ففيم تصرف ثمننا ؟

أجاب الشيخ عز الدين :

ـــ فى مصالح المسلمين :

قال نائب السلطنة :

ـــ من يقبضـــــه ؟

قال الشــــــيخ :

ـــ أنا . . .

فتم له ما اراد ، ونادى على الامراء واحدا واحدا ، وغالى فى ثمنهم ، ولم يبيعهم الا بالثمن الوافى ، وقبضه ، وصرفه فى وجوه الخير (١) .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة :ج ٢ ، ص ١٦٣

٤ — مع أستاذ الدار (١) :

هذا موقف آخر للشيخ عز الدين ، جرىء وشجاع وحاسم وقفه من وزير السلطان نجم الدين بمصر ، وكان خصمه هذا المرة ، وزيرا مشهورا ، وأميرا كبيرا هو معـــين الدين ابن شيخ الشيوخ الذى وزر لنجم الدين ، وفتح له دمشق وكان نائبه بها . ولعلنا بعد هذا ندرك ماله من خطوة عند السلطان، وماله من مكانة فى الدولة . وقد وقع الصدام بينـــه وبين عز الدين سنة ٦٤٠ هـ بعد مضى سنة واحـــدة على قدوم عز الدين الى مصر وتولى رئاسة قضائها .

بين بعض غلمان الصاحب معين الدين ابن شيخ الشيوخ، فوق أحد المساجد بناء كان بعض جوانبه « طبل خانة » أو قاعة للموسيقى ، وقد تجاهل الوزير بهذا العمل تقاليـــد المسلمين فى توفير أماكن العبادة ، كما تجاهل أوامر الدين فى احاطة المساجد بجو هادىء كله جلال وهيبة . وابعاد أماكن اللهو والعبث عنها حتى تكون القلوب فيها خالصة لله .

انزعج الشيخ عز الدين ايما انزعاج لهذا العمل ، واستعمل حقه كقاضى قضاة ، ومضى بنفسه وأولاده فهدم البناء ونقـــل ما على السطح، ثم أعلن أنه أسقط شهادة الوزير معين الدين وأنه قد عزل نفسه من القضاء .

واسقاط شهادة الوزير معناه حجب الثقة القضائية منه ، وهى شىء كبير بالنسبة لوزير مسئول وســـنرى أثر ذلك عمـــا قريب .

وقبل السلطان استقالة الشيخ استجابة لرغبته ، ولكن

---

(١) منصب أستاذ الدار « فى ذلك العصر يعادل مانسميه اليوم » كبـــير الامناء » .

« عظم ذلك عليه » كما جاء فى عدة روايات (١) · اذ كان يعرف مكانة قاضيه ، وصدقه ، واخلاصه ·

وظن الوزير أن هذا الحكم لا يتأثر به هو ، فى خارج مصر ، فاتفق أن بعث السلطان رسولا من عنده الى الخليفة المستعصم فى بغداد ، فلما وصل الرسول الى دارر الخلافة وأدى الرسالة خرج اليه من سأله :

— هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟

فأجاب :

— لا ، ولكن حملينها عن السلطان ، ابن شيخ الشيوخ « أستاذ الدار » .

فقال الخليفة :

— ان المذكور أسقطه ابن عبد السلام ، فنحن لا نقبل روايته .

فرجع الرسول الى السلطان حتى شافهه بالرسالة ، ثم عاد الى بغداد ، فأداها (٢) ·

٥ — بين عز الدين وقطز :

دمر التتار بغداد فى سنة ٦٥٦ هـ ، وبدأ المد التترى المخرب يزحف نحو الشام .

يقول ابن الاثير (٣) :

« لقد بلى الاسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الامم ، منها ظهور هؤلاء التتر قبحهم الله ، أقبلوا على المشرق ففعلوا الافعال التى يستعظمها كل من سمع بها » ..

---

(١) انظر سيرته ·

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة : جـ ٢ ، ص ١٦٢

(٣) الكامل فى التاريخ : جـ ١٢ ، ص ١٣٨

« ويقول لقد بقيت عنده سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها ، فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين .. ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى .

ان هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الايام والليالى عن مثلها . عمت الخلائق وخصت المسلمين . فلو قال قائل : ان العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتل بمثلها ، لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها .

ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والاطفال ، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الاجنة .

فان قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان ثم منها الى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما ، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره ، ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخريبا وقتلا ونهبا ، ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق .. فى أقل من سنة ، هذا ما لم يسمع بمثل .

ومضت طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد ، هذا ما لم يطرق الاسماع مثله .

فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة ، انما ملكها فى نحو عشر سنين ولم يقتل احدا ، انما رضى من الناس بالطاعة ، وهؤلاء (أى التتار) قد ملكوا أكثر المعمورة من الارض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا ، وأعدل أهل الارض اخلاقا وسيرة ، فى نحو سنة

ولم يبت أحد من البلاد التى لم يطرقوها الا وهو خـــائف يتوقعهم ويترقب وصولهم .. »

وقد رأت الغالبية العظمى من أمراء المدن الشامية الكبرى التقرب الى التتار ، والمبادرة بالاتصال بهم ليحصلوا منهم على عهود أمان ، ثم عاد نفر من أولئك الامراء ، وتطلع الى مصر التى خرجت ظافرة منتصرة من حروبها ضد الصليبيين يلتمس عندها النجدة والارشاد . كانت أول مشكلة (١) تصدت مصر لحلها هى : أن الملك الناصر صاحب دمشق أرسل ابنه الى هولاكو عقب انتصاره فى بغداد يطلب منه تفويضا بالامان . وكان السبب فى اقدام صاحب دمشق على تلك الخطـــوة هو الرهبة التى سادت عن التتار ، وعدم قدرته على تدبر الموقف فى هدوء وتؤدة وأناة ،ذلك أن التتار لم يضربوا مثلا واحدا منذ هجومهم على الشرق العربى على احترامهم للعهود والمواثيق، لانهم أهل غدر ، ويتخذون من كتب الامان وســـيلة لارهاب الناس وتدعيم سيطرتهم عن أسهل طريق وأقربه ، ومن ذلك أن ابن الملك الناصر عاد برسالة من هولاكو كلها وعيد وتهديد فقد جاء فى الرســــالة ما يلى :

« الذى يعلم به الملك الناصر .. أنا قد فتحنا بغـــداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها ، وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها . كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز :
« ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » واستحضرنا خليفها « صـيغة تحقير للخليفة » وسألناه عن كلمات فكذب ، فواقعه الندم واستوجب منا العـــدم ، وكان قد جمع ذخائر نفيسة ، وكانت نفســه خسيسة فجمع المال ، ولم يعبأ بالرجال ، وكان قد نمى ذكره وعظم قدره ، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال .

---

(١) د . ابراهيم العدوى : العرب والتتار ، ص ٨٧

اذا تم أمر دنا نقصـــــــــه
توق زوالا اذا قيــــــــل تم

اذا كنت فى نعمة فارعهــــــــا
فان المعـــــــــاصى تزيل النعم

وكم من فتى بات فى نعمـــــة
فلم يدر بالموت حتى هجـــــم

اذا وقفت على كتابى هذا ، فســــــارع برجالك وأموالك وفرسانك الى طاعة سلطان الارض « أى هولاكو » .. تأمن شره وتنل خيره . كما قال الله تعالى فى كتابه العـــــزيز : « وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » .

ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل .. وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم الى كروان سراى « وهى كلمة معناها فندق المسافرين ومحط الرحال ، كناية عن أرض مصر التى عرفها التتار بهـــذا الاسم » فان كانوا فى الجبال نسفناها ، وان كانوا فى الارض خســــــــفناها .

أين النجـــــاة ولا مناص لهارب
ولى البســـــيطان الثرى والماء

ذلت لهيتنا الاسود وأصـــــبحت
فى قبضتى الامـــراء والوزراء

وقد أثار هذا الخطاب الفزع فى نفس الملك الناصر وأهـــل دمشق كذلك، وبادر بالالتجاء الىمصر بعد أن عجز عن تحقيق أمان مع هولاكو ، وبعث بسفير له الى القاهرة ، هو الصاحب كمال الدين عمر بن العديم ، يستنجد بعسكرها ، ولما قـــدم السفير الى القاهرة عقد مجلس بالقلعة حضره الملك الطفـــل المنصور على بن المعز أيبك ، ووصيه الامير قطز ، وقاضى القضاة والفقهاء والامراء من رجال الجيش .

« فلما تكامل المجلس قام مدع ، وذكر هيئة سؤال فى أمر هولاكو واستيلائه على البلاد ووصوله الى حلب ، وان بيت المال خال من الاموال ، والسلطان صغير السن وضــــاعت

مصالح الرعية ، وان الوقت محتاج الى اقامة سلطان كبير تخشاه الناس ، ويدفع العدو ؛ وأن بيت المال محتاج الى المساعدة بشىء من أموال الرعية لاقامة الجند ، وتجهيزهم للسفر وما يعينهم على ذلك (١) .

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام هو رجل الموقف الخطير ، فتكلم ، وأحسن الكلام . قال ابن تغردى بردى :
« وافاضوا فى الحديث فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام » (٢) .
وقال ابن اياس :

« وكان المشار اليه فى ذلك المجلس شيخ الاسلام العز بن عبد السلام » (٣) .
سكت الامراء والقضاة والعلماء على كلام مدعى السلطان، ولم يجرؤ أحد على أن يعترض على ما عند الملك الجديد المظفر قطز عزمه ، من فرض ضرائب جديدة على الرعية لتمويل الحرب . وكادت جماهير الشعب أن ترزح وحدها تحت وطأة الضرائب الفادحة ، وتكابد الشدة دون الاعيان والامراء وبيت السلطان ، لو لم يستدرك الشيخ عز الدين الامر بموقفه الجرىء الصريح ، موقف المرشد المخلص ، فقام وقال :

اذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على العالم قتالهم ، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط أن لا يبقى فى بيت المال شىء من السلاح والسروج الذهبية والفضية ، والكبابيس المزركشة واسقاط السيوف والفضة وغير ذلك . وتبيعوا ما لكم من الحوائص الذهبية والآلات الذهبية ، ويقتصر كل الجند على سلاحه ومركوبه

---

(١) تاريخ مصر لابن اياس : ج ١ ص ٩٥ ، والنجوم الزاهرة : ج ٧ ، ص ٧٢
(٢) و (٣) المصدران السابقان فى مواضعهما .

ويتساووا هم والعامة ، وأما أخذ الاموال من العامة مع بقايا في أيدى الجند من الاموال والآلات الفاخرة فلا ..

وانفض المجلس على كلمته هذه التوجيهية الرشيدة ، وطبق قطز ما قاله الشيخ عز الدين ، وكان لحسن توجيهـــه ، وتشجيعه ، ودعائه أثر كبير فى رفع نفسية السلطان والقواد والجنود وجماهير الشعب ، فخاضوا المعركة ، وهم واثقون مطمئنون الى نصر الله . فهزم التتار فى « عين جـالوت » وانتصر المسلمون نصرا عزيزا كريما .

كان يوم عين جالوت عظيمـــا ، لا فى تاريخ مصر وتاريخ الاسلام فحسب ، ولكن فى تاريخ المدينة بأسرها ، اذ أن هذا التيار التترى المخرب كان ينذر باقتحام المشرق الى المغرب ، ولو اجتاح التتار مصر لاجتاحوا المغرب والاندلس واندفعوا الى أوربا محطمين فى طريقهم أركان الحضارة الاســلامية والمسيحية على السواء ، كما فعلوا فى بغداد وغيرهـا من المدن الزاهرة .

ولكن مصر استطاعت فى عين جالوت أن تنقذ الاســلام والمدنية بأسرها ، وكان الجيش المصرى أول جيش صمد فى وجه التتار وأبطل الاعتقاد السائد فى تلك الاوقات بأن التتار قوم لا يغلبـــون .

وليس عجيبا بعد ذلك ان تتيه مصر فخارا وان تتغنى على مر الزمن بهذا النصر المبين الذى وصفه أحد الشـــعراء المعاصرين للمعركة بهذه الابيات :

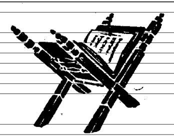
هلك الكفر فى الشـــآم جميعا
واستجد الاسلام بعد دحوضه

بالمليك المظفـــر الملك الار وع سيف الاسلام عند نهوضه

ملك جاءنا بعـــزم وحـــزم
فاعتززنا بســمره وبيضــه

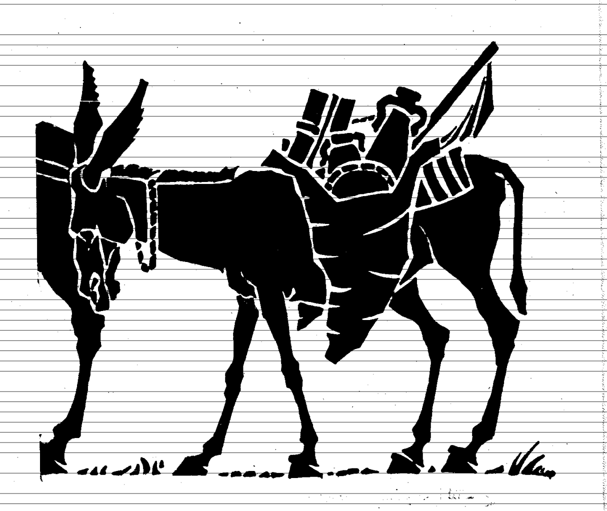
أوجب الله شــكر ذاك علينا
دائما مثل واجبات فروضــه

تلك أهم المواقف الحاسمة فى حياة الشـــــيخ عز الدين ، وبعضها سياسى بحت يدافع فيه عز الدين عن حقوق الشعب وهو فقيه من الشعب، مثل موقفه من قطز ، وموقفه من خيانة الصالح اسماعيل من قبل ، وبعضها يكون الخلاف بينه وبين الحكام بسبب الرأى الفقهى التشريعى مثل باقى مواقفه التى ذكرناها ، وهنا تمتزج شخصيته العلمية بشخصيته السياسية امتزاجا قويا فتكون الاخيرة فى خدمة الاولى ومنفذة لتعاليمها. لقد كان عز الدين مرهوب الجانب ، مسموع الكلمة ، وكان يستهدف اصلاح المجتمع ، واقامة الحق والعدل ..



الفصـــــل الخامس

المتصـــــوف المتشرع





ذكر السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى نقلا عن القاضى عز الدين الهكارى « تلميذ الشيخ » ، أن الشيخ عز الدين لبس خرقة التصوف من الشيخ شهاب الدين السهروردى وأخذ عنه (١) .

والشيخ شهاب الدين السهروردى هو زعيم مدرسة الاشراقيين ، وقد ولد سنة ٥٣٩ هـ فى قرية سهرورد وهى بلدة فى أعالى جبال فارس ، من أعمال زنجان ، وقد نشأ شهاب الدين نشأة دينية فحفظ القرآن ، واجتذبته الحلقات الصوفية الى رحابها ، وتأثر بها وبما كتبه الائمة من المتصوفين ، فسار سيرهم وأخذ يرسم اختلاجاته النفسية فى رسائل تعبر عن نزعاته فى الدين والحياة وهى مشربة بروح فلسفية تصوفية ، واستطاع أن يرسم خطوط الفلسفة الاشراقية التى اعتبر زعيمها الاول ومؤسس مدرستها الكبرى .

وكان الشيخ شهاب الدين قد حضر الى دمشق من بغداد عدة مرات ، وآخر مرة حضرها كانت فى سنة ٦١٢ هـ ، ولعل الشيخ عز الدين بايع السهروردى فى هذه السنة ، وعمره اذ ذاك خمس وثلاثون ، وهو منته من الدرس والتحصيل ، مكتمل السن ، ومتهيأ لتلقى المعارف الباطنية ، كما يسمونها ، وتنمية ملكاته الروحية ، وتصفية قلبه .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى :جـ ٥ ، ص ٨٣ .

وبعد أن استقر الشيخ عز الدين فى مصر ، اتصل بالشيخ أبى الحسن الشاذلى ، صاحب الطريقة الشاذلية ، وصديق الشيخ ، وقد قيل انه بايع فى الطريقة الشاذلية ايضا ، وسواء صح هذا أم لا ، فهذا لا ينفى الصداقة والصحبة بينهما ، وكان كل منهما يحب صاحبه ، ويعترف له بالفضل ، لأن الاول أمام عصره فى الفقه وعلوم الشريعة ، والثانى شـــيخ زمانه فى السلوك ، وعلوم الطريقة .

ومما يذكر فى هذا المجال انه اجتمع مرة بالشيخ الشاذلى جماعة من كبار العلماء ، وفيهم الشيخ واتصـل بينهـــم الكلام على مراتب اهل المعارف ، فذكر للسماع خمسة أنواع، وقسم أهلها على ترتيب هذه الانواع ، وأول المراتب ســماع القرآن ، وثانيها سماع المواعظ والتذكير ، وثالثها ســماع الحداء والنشيد والاشعار ، ورابعها سماع المطربات المختلف فى تحليلها كسماع الدف والشبابات ، والثلاث الأولى مباحة، أما النوع الرابع فقد علق الشيخ عز الدين عليه قائلا :

« فهذا ان اعتقد تحريم ذلك فهو مسىء لســماعه . محسن بما يحصـــل له من المعارف والأحوال ، وان اعتقد اباحتها تقليدا لمن قال بها من العلمـــاء فهـــو تـــارك للورع باستماعها ، محسن بما حضره من المعارف والأحوال الناشئة عنهـــا » .

ثم يتابع التقسيم فيقول :

« المرتبة الخامســـة : من تحضره هـــذه المعـــارف والأحوال عن سماع المطربات المحرمة عند جمهور العلماء ، كسماع الأوتار والمزامير ، فهذا مرتكب لمحرم ، ملتذ النفس بسبب محرم ، فان حضره معرفة وحال تناسب تلك المعرفة ، كان مازجا للخير بالشر ، والنفع بالضر ، مرتكبا الحســـنات والسيئات ، ولعل حسناته لا تفى سيئاته ، فان انضـــم الى ذلك نظر الى مطرب لا يمل النظر اليه ، فقد زادت شــقوته ومعصـــيته .

وعلى الجملة : فالسماع بالحداء ، ونشيد الاشعار بدعة لا بأس بسماع بعضها ، وأما سماع المطربات المحرمات فغلط من الجهلة المتشيعين المتشبهين المجترئين على رب العالمين ، ولو كان ذلك قربة كما زعموه لما أهمل الأنبياء ان يفعلوه ويعرفوه لأتباعهم وأشياعهم ، ولم ينقل ذلك عن احد من الأنبياء ولا من أكابر الاولياء ، ولا أشار اليه كتاب من الكتب المنزلة من السماء ، وقد قال الله تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » .

ولو كان السماع بالملاهي المطربات من الدين ، لبينه رسول رب العالمين ، وقد قال عليه السلام :

« والذى نفسى بيده ما تركت شيئا يقربكم من النار ويباعدكم عن الجنة الا نهيتكم عنه » . واعلم أن السماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم ، وهم اقسام أحدها العارفون بالله ، ويختلف سماعهم باختلاف احوالهم فمن غلب عليه الخوف اثر فيه السماع عند ذكر المخلوقات وظهرت آثاره عليه من الحزن والبكاء وتغيير اللون .

والخوف على أقسام :

أحدها : خوف العقاب ، والثانى خوف فوات الثواب ، والثالث خوف فوات الحظ من الأنس والقرب بالملك الوهاب، وهذا من أفضل الخائفين وأفضل السامعين ، فمثل هذا لا يتصنع فى السماع ، ولا يصدر عنه الا ما غلب عليه من آثار الخوف لأن الخوف وازع عن التصنع والرياء ، وهذا اذا سمع القرآن كان تأثيره فيه أشد من تأثير النشيد والغناء .

والقسم الثانى : من غلب عليه الرجاء فهذا يؤثر فيه السماع عند ذكر المطمعات والمرجيات ، فان كان رجاؤه للانس والقرب كان سماعه أفضل سماع الراجين ، وان كان رجاؤه للثواب فهذا فى الرتبة الثانية ، وتأثير السماع فى الأول أشد من تأثيره فى الثانى .

القسم الثالث : من غلب عليه الحب وهو قسمان :

احدهما من احب الله لانعامه عليه واحسانه اليه فهذا يؤثر فيه سماع الانعام والافضال والاحسان والاكرام .

والقســـم الثانى من غلب عليه حب الله لشرف ذاته وكمال صفاته فهذا يؤثر فيه ذكر شرف الذات وكمال الصفات، ويشتد تأثيره فيه عند ذكر الاقصاء والابعاد ، وهو افضل من الذى قبله ، لأن سبب حبه افضل الأسباب .

القسم الرابع : من غلب عليه التعظيم والاجلال فهذا افضل من الأقسام الثلاثة اذ لاحظ له فى سماعه لنفسه ، فان النفس تتضاءل وتتصاغر للتعظيم والاجلال ، فلاحظ لنفســـه فى هذا السماع بخلاف من تقدم ذكره من الأقسام فانهم واقفون مع ربهم من وجه ، ومع أنفسهم من وجه أو وجوه وشـــتان بين ما خلص لله ، وبين ما شاركته فيه النفوس ، فان المحب ملتذ بجمال محبوبه وهو حظ نفسه ، والهائب ليس كذلك .

وتختلف أحوال هؤلاء فى المسموع منه ، فالسماع من الأولياء ، اشد تأثيرا من الســـماع من الجهـلة الأغبيـــاء ، والسماع من الأنبياء اشـــد تأثيرا من الســـماع من الأولياء والسماع من رب الارض والسماء اشد تأثيرا من السماع من الأنبياء ، لأن كلام المهيب أشد تأثيرا فى الهائب من كلام غيره، كما أن كلام الحبيب أشد تأثيرا فى المحب من كلام غيره ، ولهذا لم يشتغل الأنبياء والصديقون وأصـــحابهم بســـماع الملاهى والغناء واقتصروا على كلام ربهم لشـــدة تأثيره فى أحوالهم ، ولقد غلط كثير من الناس فى سماع النشـــيد وطيب نغمـــات الغناء من جهة أن اصوات الملاهى وطيب النشيد وطيب نغمات الغناء فيها حظ للنفوس ، واذا سمع أحدهم شيئا مما يحرك حالة التذت نفسه بأصـــوات الملاهى ونغمات الغناء وذكـره النشيد والغناء بما يقتضيه حاله : من الحب والخوف والرجاء فتثور فيه تلك الأحوال فتلتذ النفوس من وجه مؤثرة ، ويؤثر السماع ما يشتمل عليه الغنـــاء من الحب والخوف والرجاء فيحصل الأمران : لذة النفس ، والتعلق بأوصاف ربه فيظن أن الكل متعلق بالله وهو غالط .

القسم الخامس : من يغلب عليه هوى مبـاح ، كمن يعشق زوجته وأسرته فهذا يهيجه الســماع ويؤثر فيه آثار الشوق وخوف الفراق ورجاء التلاق فيطرب لذلك ، فسماع هذا لا بأس به .

القسم السادس : من يغلب عليه هوى محرم ، كهوى المرد ومن لا تحل له من النساء ، فهذا يهيجه الســماع الى السعى فى الحرام وما أدى الى الحرام فهو حرام .

القسم السابع : من قال لأحـــد : فى نفسى شيئا مما ذكرتموه فى الاقسام الستة فما حكم السماع فى حقى ؟

قلنا هو مكروه ، من وجه أن الغالب على العامة انما هو الأهواء الفاسدة ، فربما هاجه السماع على صورة محرمة فيتعلق بها ويميل اليها ولا يحرم عليه ذلك لأنا لا نتحقق السبب المحرم ، وقد يحضر السماع قوم من الفجرة فيبكون وينزعجون لاسباب خبيثة انطووا عليها ويراءون الحاضرين بأن سماعهم للاسباب المذكورة فى الأقسام الستة وهذا جمع بين المعصية وبين ايهام كونه من الأولياء ، وقد يحضر السماع قوم قد فقدوا أهاليهم ومن يعز عليهم ويذكر المنشــد فراق الأحبة وعــدم الانس بهم فيبكى أحدهم ويوهم الحاضرين ان بكاءه لأجل رب العالمين ، وهذا مراء بأمر غير محرم ...

وأما الرقص والتصفيق بخفة ورعونة مشـــبهة لرعونة الاناث لا يفعلها الا راعن أو متصنع كذاب وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه ، وقــد قال عليــه الســلام :

— « خير القــرون قرنى ثم الــذين يلونهم ثم الــذين يلونهم » .

ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يقتدى بهم يفعل شــيئا من ذلك .

وانما استحوذ الشيطان على قوم يظنون أن طربهم عند السماع انما هو متعلق بالله عز وجل ، ولقد مانوا فيما قالوا وكذبوا فيما ادعوا من جهة انهم عند سماع المطربات وجدوا

لذتين اثنتين : احداهما لذة المعارف والأحوال المتعلقة بذى الجلال ، والثانية : لذة الأصوات والنغمات والكلمات الموزونات الموجبات لذات النفس التى ليست من الدين ولا متعلقة بأمور الدين ، فلما عظمت عندهم اللذتان غلطوا فظنوا أن مجموع اللذة انما حصل بالمعارف والأحوال ، وليس كذلك بل الأغلب عليهم حصول لذات النفوس التى ليست من الدين بشىء .

وقد حرم بعض العلماء التصفيق لقوله عليه السلام « انما التصفيق للنساء » ولعن عليه السلام المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء ، ومن هاب الاله وأدرك شيئا من تعظيمه لم يتصور منه رقص ولا تصفيق ، ولا يصدر التصفيق والرقص الا من غبى جاهل ، ولا يصدران من عاقل فاضل ، ويدل على جهالة فاعلهما أن الشريعة لم ترد بهما فى كتاب ولا سنة .

وقبل أن ندلى برأينا فيما نسب الى الشيخ عز الدين من كرامات ، نقول : ان الكرامات أمر خارق للعادة يظهره الله عز وجل على يد عبد صالح من عباده ، اكراما له .

يقول المناوى فى مقدمة الطبقات الكبرى :

« وهى جائزة بل واقعة حسبما نطق به النص القرآنى والحديث النبوى ، أما القرآن ، فلقصة أهل الكهف حيث أقاموا فيه ثلثمائة سنة وازيد نياما أحياء بلا آفة ولا غذاء وليسوا بأنبياء باجماع الفرق ، وقصة مريم حيث حملت بلا ذكر ووجد الرزق عندها بلا سبب ، وتساقط عليها الرطب من ثمرة يابسة بلا موجب .

وقصة واصف بن برخيا حيث أحضر عرش بلقيس من مسافة بعيدة فى طرفة عين . وأما السنة فحديث جريج الراهب الذى كلمه الطفل الرضيع كما فى الصحيحين وحديث أصحاب الغار الذى انطبق عليهم الصخر . وحديث البقرة التى ركبها صاحبها فالتفتت اليه وكلمته .

ومن حوادث الصحابة صيحة عمر — ياسارية الجبل — واضاءة السوط كالمصباح لأسيد بن حضير فى ليلة مظلمة ... الخ » ويمضى المناوى فى سرد مئات الامثلة .

روى البخارى بالسند عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :
« بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عينا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الانصارى جد عاصم ابن عمر بن الخطاب ، فانطلقوا حتى اذا كانوا بالهدأة وهو بين عسفان ومكة ، وذكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان ،

فنفروا — أى خرجوا — لهم قريبا من مائتى رجل كلهم رام فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة . فقالوا : هذا تمر يثرب ، فاقتصوا آثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا الى فدفد — أى مكان مرتفع — وأحاط بهم القوم . فقالوا لهم :

— أنزلوا وأعطونا بأيديكم — أى سلموا ولكم العهد والميثاق — ولا نقتل منكم أحدا .

قال عاصم بن ثابت أمير السرية :

— أما أنا فوالله لا أنزل فى ذمة كافر اللهم أخبر عنا نبيك .

فرموهم بالنبل ، فقتلوا عاصما فى سبعة — أى ضمن سبعة — فنزل اليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الانصارى ، وابن دثنة ، ورجل آخر . فلما استمكنوا منهم ، أطلقوا أوتار قسيهم ، فأوثقوهم . فقال الرجل الثالث :

— هذا أوان الغدر ، والله لا أصحبكم . أن فى هؤلاء لأسوة « يريد القتلى » فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم ، فقتلوه .

فانقلبوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر ، فابتاع خبيبا بنو الحرث ابن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خبيب قد قتل الحرث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب

عندهم أسيرا . فأخبرنى عبد الله بن عياض أن بنت الحرث أخبرتر أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يســـتحد بها فأعارته (قالت) فأخذ ابنا لى ، وأنا غافلة حين أتاه ، فوجدته مجلسه على فخذه ، والموس بيده ، فضرعت فزعة عرفهـــا خبيب فى وجهى فقال :

— أتخشين أن أقتله ؟! ما كنت لأفعل ذلك ، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب فى يده ، وأنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمر .

وكانت تقول أنــه لرزق من الله رزقه خبيبا . فلمـــا خرجوا من الحرم ليقتلوه فى الحل ، قال لهم خبيب :

— ذرونى أركع ركعتين .

فتركوه فركع ركعتين . ثم قال :

— لولا أن تظنوا أن ما بى جزع لطولتهما اللهم أحصهم عـــددا .

ولست أبالى حين أقتـــل مســـــلما
على أى شـــق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الالــــه وان يشـــــأ
يبارك على أوصـــال شـــلو ممـــزع

فقتله ابن الحارث ، فكان خبيب هو الذى سن الركعتين لكل مسلم قتل صبرا ، فاستجاب الله لعاصـــم بن ثابت يوم أصيب ، فأخبر الله النبى صـــلى الله عليه وســـلم خبرهم وما أصـــيبوا ، وبعث ناس من كفار قريش الى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليأتوا بشيء منه يعرف ، وكان قد قتل رجلا من

عظمـــائهم يوم بدر ، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر — جماعة النحل والزنابير — فحمته من رسلهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا » .

« وهذا الحديث قرة أعين للمؤمنين الـــذين يعبـــدون الله وحده ولا يشركون به شـــيئا ، وقذى فى أعين المشركين الذين يفزعون الى غير الله فى أوقات الشدائد والكروب .

« ألم يستجب الله لعاصم رضى الله عنه ويخبر عنـــه نبيه صلى الله عليه وسلم ؟

أليست هذه كرامة أكرمه الله بها لصدق ايمانه وقوة يقينـــه ؟

الم يبعث الله النحل تحمى جثتـــه من ان يعبث بهـــا الكفار أو يمثلوا بها ؟

الم يكرم الله خبيبا ، وهو أسير مكبل بالأغلال ، موثق بالحديد فى مكة ، فبعث اليه بقطف من العنب ، وليس فى مكة يومئذ تمر (١) ؟

يقول السيد رشيد رضا :

« وقد (٢) اشتهر فى عباد الملة افراد فى ترك الاسباب كلها توكلا على الله تعالى وثقة به ، واشـــتهر من تسـخيره تعالى الأسباب لهم والعناية بهم ما يعسر على الذكى تأويله بالتخريج على المصادفات المعتادة ...

ثم يقـــول :

« وقد حدثنا صديقنا العلامة الصوفى الاديب الشـــيخ عبد الغنى الرافعى انه قد غلب عليه التوكل وحدثت نفســـه بأنه صار مقاما له فامتحنها بسفر خرج من بلده وليس فى يده مال فسخر الله له من الاسباب الشريفة ما كان به سـفره لائقا بكرامته وحسن مظهره » .

يقول الامام الغزالى (٣) :

« فى كل عصر جماعة من المتألهين لا يخلى الله العالم منهم فانهم أوتاد الارض ببركتهم تنزل الرحمة الى اهل الارض

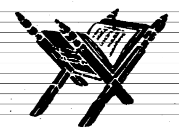
---

(١) ابو الوفا محمد درويش : صيحة الحق ص ٨٨ .
(٢) تفسير المنار : جـ ١٠ ، ص٢٢٨ .
(٣) المنقذ من الضلال : ص ١٨ .

كما ورد فى الخبر حيث قال عليه الصــلاة والسلام ـ بهم يمطرون وبهم يرزقون ومنهم كان أصحاب الكهف » .

فظهور الكرامات جائز بل واقــع وهى امور ناقضــة للعادة غير مقترنة بدعوى النبوة وهى عون للعبــد الصالح مقوية ليقينه وحاصلة له على حسن استقامته .

وبناء على ذلك نقول أن ما نسب الى الشيخ عز الدين ابن عبد السلام من كرامات قد حدث فعلا ، بارادة من اللــه عز وجل .



الفصـــل السادس

صـــــــورة وصـــــفية



كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام مهيبا جليلا ، مقبول الصورة ، تحبب اليه النفوس ، يملك قوة التأثير على محدثيه ، وقوة الاقناع على مناظريه ، وقوة الغلبة على مخالفيه ، يملك كل ذلك لأنه يملك قوة الايمان بالله العلى القدير .

ولدينا أحداث كثيرة تؤكد قوة شخصيته ، وسحر هيئته ، لعل من أهمها حادثتين :

الأولى : هى حادثة وقعت له خلال الحكم عليه بالاقامة الجبرية من قبل الملك الاشرف ، وكان قد استاجر بستانا بعيدا عن المدينة عاش فيه هو وأسرته .

فحدث مرة أن جماعة من أعدائه المفسدين قصدوه فى ليلة مقمرة ، فدخلوا البستان وأحاطوا بالدار ، وكان أهله قد افوا مما يصيبهم من الأذى خوفا شديدا ، فنزل الشيخ اليهم ، وفتح باب البيت ، وقال :

— « أهلا بضيوفنا » .

وأجلسهم فى مكان محترم ، واذا بعدائهم وشر قصدهم قد طار ، وهم مقبلون على الشيخ مجيبون لدعوته برهبة واكبار .

وينقل السبكى هنا عن ولد الشيخ :

« ... وكان مهيبا مقبول الصورة ، فهابوه وسحر

(١) طبقات الشافعية الكبرى : جـ٥ ، ص ٩٦

الله له (١) ثم قدم لهم الطعام ، فأكلوا وعادوا طالبين الدعاء منه ، حاملين ذكرى جلال شخصيته وسحر هيئته .

والحادثة الثانية : وقد تناولناها قبل ذلك بالتفصيل وهى حادثة بيع أمراء الدولة المماليك فى المزاد ، فلقد سقط السيف من يد نائب السلطنة الذى جاء ليقتل الشيخ عز الدين ابن عبد السلام .

تواضعه :

كان الشيخ عز الدين مع علمه وفضله وجلالة شأنه لدى الحكام ، متواضعا مع الناس ، متواضعا مع الله عز وجل ، وهو الذى قال :

ـ « يا ولدى ، أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله » .

وهكذا كان متواضعا فى مظهره بعيدا عن التكلف ، لا يتأنق لكاذب الحشمة ، حتى لم يكن يتقيد بلبس العمامة على عادة العلماء الفقهاء ، بل ربما لبس قبع لباد « طاقية الصوف » وكان يحضر المواكب السلطانية به (١) .

وقال السبكى بمناسبة الكلام على اعطائه قطعة من عمامته تصدقا للفقير :

« فكأنه كان يلبس تارة هذا وتارة هذا حسب ما يتفق من غير تكلف » .

ونص كذلك ابن العماد الحنبلى على بعده عن التكلف بقوله :

« . . . مضافا الى ما جبل عليه من ترك التكلف (٢)» .

ومن أمثلة تواضعه وبعده عن التكلف ، ما رأيناه فى قصة بيع أمراء الدولة المماليك فى المزاد ، عندما غادر الشيخ عز الدين القاهرة حاملا حوائجه وعائلته على حمير وهو ماش

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : جـ ٥ ، ص ٨٣

(٢) شذرات الذهب : جـ٤ ، ص ١٥٥

خلفهم على قدميه .

ولم يكن هذا التواضع ليجعله ضـــعيفا متخـــاذلا أمام أقوياء الحكام ، وأشداء الأمراء ، وقد مرت بنا حوادث دلت على ترفعه على السلاطين ، ومؤاخذته اياهم .

وسنرى أمثلة أخرى فيما بعد .

وكان دافعه فى تواضعه هـــذا ، تقـــواه وبســـاطته الطبيعية ، فعاش متواضعا فى غير ضعف ، ومترفعا فى غير كبرياء ، بساطة فى المعيشة ، وعدم التكلف فى المظاهر ، وعزة فى النفس .

جرأته فى الحق وصلابته فى الدين :

كان من أبرز سمات شخصـــية الشـــيخ عز الدين ، الجرأة فى الحق والصلابة فى الدين ، وما مواقفه الحاســمة الا صدى لهذه الشجاعة الطبيعية والصلابة الدينية . ولقـــد نوه مترجموه بذلك كثيرا .

قال اليافعى :

وكان عز الدين رحمه الله يصدع بالحق ، ويعمل به ، متشددا فى الدين ، لا تأخـــذه فى الله لومة لائم ، ولا يخـــاف سطوة ، ولا سلطانا ، بل يعمل بمـــا أمر الله ورســـوله ، وما يقتضيه الشرع المطهر ...

ويقـــول :

كان رضى الله عنه جبل ايمان يصادم السلطان كائنـــا من كان ، بمشافهة الانكار تحت عظام الأخطار (١) .

وقال السبكى :

لم ير مثل نفسه ، ولا رأى من رآه ، مثله علما وورعا، وقياما فى الحق ، وشجاعة وقوة جنان ، وسلاطة لسان (٢) .

---

(١) مرآة الجنان : ج٤ ، ص ١٥٥ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى : ج٥ ، ص ٨٠ .

وزيادة على مواقفه الحاسمة التى تؤكد ما ذهبنا اليه من تمتع الشيخ بالجرأة والشجاعة فهناك حادثة أخرى رواها السبكى فى طبقاته :

« طلع شيخنا عز الدين مرة الى السلطان فى يوم عيد، الى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، ومجلس المملكة وما للسلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه فى زينته على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذت الامراء تقبل الأرض بين يدى السلطان ، فالتفت الشيخ الى السلطان ، وناداه :

ــ يا ايوب !! ما حجتك عند الله ، اذا قال لك ، الم ابرىء لك ملك مصر ، ثم تبيع الخمور ؟!

قال :

ــ هل جرى هذا ؟

فقال الشيخ :

ــ نعم ، الحانة الفلانية ، تباع فيها الخمور ، وغيرها من المنكرات ، وانت تتقلب فى نعمة هذه المملكة .

فقال السلطان :

ــ يا سيدى ! هذا انا ما عملته .. هذا من زمان ابى .

فقال الشيخ :

ــ انت من الذين يقولون : « انا وجدنا آباءنا على أمة (٣) » .

وهنا اضطر السلطان الى الاستجابة لمطالب الشيخ ، واصدر أمرا باغلاق تلك الحانة .

وعندما ذاع هذا الخبر بين الناس ، سأل احد تلاميذ الشيخ مستفسرا عن سبب هذه المؤاخذة والانتقاد أمام الملأ فى مثل هذا اليوم العظيم ، فأجابه :

---

(٣) المراد بالامة هنا الملة والدين.

ــ يابنى ! رأيته فى تلك العظمة ، فأردت أن أهينــه لئلا تكبر عليه نفسه ، فتؤذيه .

فقال التلميذ لأستاذه الشيخ :

ــ أما خفته ؟

قال الشيخ لتلميذه :

ــ والله يابنى ! استحضرت هيبة الله تعالى ، فصار السلطان قدامى كالقط !!

وفى هذه الكلمات البسيطة المخلصة كشــف ســلطان العلماء عن سر جرأته فى الحق ، وشــجاعته النادرة ، وهو استحضار هيبة الله وعظمته ، الــذى يجعل أشــداء الملوك كأضعف الدواب أمامه .

ومن الأمثلة على سلاطة لسانه وشجاعته وشدته فى الدين ، قوله للملك الظاهر بيبرس ، وقد أراد أن يأخذ لنفسه بيعة من الشيخ بعد ما نادى نفسه ملكا لمصر .

قال الشيخ :

ــ ياركن الدين . . . أنا أعرفك مملوك البندقدار (1) .

فما بايعه حتى قامت الشــهادة الشرعية على عتقه .

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام صادقا مخلصــــا مع الله ومع الناس ومع السلاطين ، فقد كان الناصــــح الأمين ، والمرشد الصادق الذى يوجه جمهــور المســلمين وسلاطين الدولة الى الخير دون مجاملة أو منافقة أو مجاراة .

طلب منه الملك الأشرف بعد نهاية المقابلة أن يعــوده فى مرضه ، فعاده الشيخ ، وسأله الملك أن ينصحه ، فنصحه ، وصدق فى نصيحته .

---

(1) البندقدار : نسبة الى البندق ، وهى كرات صغيرة تستخدم فى صيد الطيور ، وتصــنع من الحجارة أو الرصاص . وكان البندقدار يحمل جراوة البندق ــ أى كيسه ــ خلف السلطان أو الأمير .

كان الأشرف فى خيمة ضربت « بالكسوة » (٢) ، وجعل دهليزها الى مصر ، اظهارا للعداء والاستخفاف بأخيه السلطان الكامل ، وكان بينهما خصومة ، ورأى الشيخ هذا فنصحه ،

قال :

— ان الملك الكامل أخوك الكبير ، ورحمك وأنت ملك عظيم عرف الناس كلهم شجاعتك وفتوحاتك ، وتعرف أن التتار أعداء الله والاسلام — يغزون بلاد المسلمين ويفتحونها . ومع ذلك نتركهم يحاربونهم ويفتحون بلادهم ويقتلون نساءهم وصبيانهم ، ويهدمون مساجدهم ، لو أمكنهم الله منهم ، وحاشا لله . تترك — يا سلطان المسلمين — أعداء الاسلام يصنعون ذلك بالمسلمين لتحارب أخاك الملك المسلم ؟

ثم قال الشيخ :

— دع ذلك أيها السلطان . فما فيه الا قطع الرحم ، وخذلان الدين ، ونصر أعداء الاسلام ، وقم لنصرة الله وحرب أعدائك واعزاز كلمة الحق .

وكان السلطان مريضا ، فقال الشيخ :

— ان شاء الله لسلطاننا وسلطان المسلمين الشفاء والعافية ، رجونا من الله أن ينصرك على عدوه وعدوك ، وكانت لك بذلك الحسنة فى الدنيا والاخرة .

وان شاء الله لك أمرا آخر جازاك الله بحسن قصدك واخلاصك وسعيك وانما الاعمال بالنيات .

وقد انصاع الملك لهذه اللفتة الصادقة ، وأمر بتحويل اتجاه الخيمة، والشيخ حاضر (١)وكذلك نصحه باغلاق بعض الحانات التى تباع فيها الخمور ، وهو لا يعلمها ، وأن تلغى المكوس الجائرة التى فرضها على الرعية عماله وغير ذلك .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ج ٥ ، ص ٩٩

(٢) من ضواحى دمشق من ناحية الأردن .

وكذلك لكلماته الصادقة المخلصة تأثير فى نفس الملك الذى قدره حق القدر بعد المحنة ، وأمر بالتنفيذ فى الحال (٢) .

وعز الدين بن عبد السلام هو الذى نصح الملك قطز ، بعدم جمع الاموال من الرعية ، مادام السلطان والامراء يملكــون أمولا زائدة عن حاجاتهم ، وكان لهذه النصيحة الصــــادقة دور كبير فى احراز النصر على التتار .

وصدق الشيخ عز الدين مع الناس حينما منعهم من بيع الاسلحة الى الفرنج الاعداء بدمشق ، وعرف أنهم يتــأثرون بفتواه فى تجارتهم وهم يعيشون على بيع السلاح ،وباع من باعها لهم من ضعاف النفوس تكسبا لقوته ، وكان بامكانه أن يسمح لهم بالبيع متأولا ، ولكنه قال :

ــ « يحرم عليكم مبايعتهم لانكم تتحققون أنهم يشــترونه ليقاتلوا به اخوانكم المسلمين » (١)

حبـــه للتصدق :

كان الشيخ عز الدين رغم فقره ، كثير الصدقات ــ وعلى حد تعبير السبكى ــ أنه ربما قطع من عمامته واعطى فقيرا يسأله اذا لم يجد معه غير عمامته .

حكى قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة : أن الشيخ لما كان بدمشق وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل ، فأعطته زوجته مصاغا لها ، وقالت :

ــ اشتر لنا به بستانا نصيف به .

فأخذ ذلك المصاغ وباعه وتصدق بثمنه .

فقالت :

ــ يا سيدى ! اشتريت لنا ؟!

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ج ٥ ، ص ١٠٠

(٢) نفس المصدر : جـ ٥ ، ص١٠٠

قال :

ــ نعم ، بستانا فى الجنة ، انى وجدت الناس فى شــــدة فتصدقت بثمنه .

فقالت له :

ــ جزاك الله خيرا (١) .

وهكذا يأبى الشيخ عز الدين الفقير اليد ، الغنى القلب الا أن يعطى ويهب .

زهده وورعه :

اتفق مترجموه على ورعه وزهده ، ودلت على ذلك سيرته ومواقفه الحاسمة :

قال الكتبى :

ــ « وكان ناسكا ورعا » (٢) .

وقال ابن العماد الحنبلى :

ــ « ... هذا مع الزهد والورع » (٣) .

عزم الملك الاشرف عند نهاية فتنة الحنابلة واقتناعه بصحة عقيده الشيخ عز الدين أن يسترضيه ويعــوض عليه بالمال والثراء .

وقال :

ــ « والله ! لاجعلنه أغنى العلماء »

بيد أن الشيخ ظل مبتعدا عن مجالسه يدافع من ورعــه وزهده ، ولم يرد أن يستغل انتصاره فى سبيل مصـــالحه الشـــخصية .

ولما اســتطاع الملك أن يفوز بالاجتمـــاع معه فى مرضه وطلب منه أن يصفح عنه و يجعله فى حل منـــه ، قال له الشـــيخ :

---

(١) نفس المصدر : ج ٥ ، ص ٨٢ ، ٨٣

(٢) فـــوات الوفيات : ج ١ ، ص ٥٩٥

(٣) شــذرات الذهب : ج ٥ ، ص ٣٠٢

أما محـــاللتك فانى كـل ليلة أحالل الخلق ، وأبيت وليس لى عند أحد مظلمة ، وأرى أن يكون أجرى على الله ولا يكون على الناس ، وأن يكون أجرى على الله ولا يكون على خلقه أحب الى .

وعند نهاية هذه الجلسة التى نصحه فيها الشيخ ، قـــدم اليه السلطان ، مائة دينار مصرية هدية ، فردها الشـــيخ عليـــه وقال .

ــ هذه اجتماعة إله لا أكدرها بشيء من الدنيا (١) .

قال عز الدين بن عبد السلام يصف أهل الصــلاح الذين فضلوا ما عند الله على ما عند الناس ، وكأنه يصـــف نفســـه :

« فسبحان من عرف نفسه لهؤلاء من غير تعب ولا نصب ، ولا استدلال ولا وصب ، بل جاد عليهم ، وسقاهم خالص وبله وصافى فضله ، فشغلهم به عما سواه ، فلاهم لهم سـواه ، ولا مؤنس لهم غيره ، ولا معتمد لهم الا عليه ، لعلمهم الا ملجأ الا ليه ، فرضوا بقضائه ، وصبروا على بلائه ، وشـــكروا لنعمائه ، يتسع عليهم ما يضيق على الناس ، ويضيق عليهم ما يتسع للناس . أدبهم القـــرآن ، ومعلمهم الرحمـن ، وجليسهم الديان ، وسرابيلهم الاذعان ، قد انقطعـــوا عن الاخوان ، وتغربوا عن الاوطان » .

كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، مؤمنا حقا وصدقا ، بركة على الناس ، ورقيبا شديدا على سلوكهم .

تحليل شخصيته :

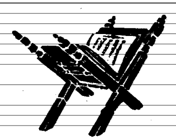
يبدو لنا من تحليل أوصاف الشيخ عز الدين بن عبدالسلام الطبيعية والنفسية ، أنه كان قوى النفس بحيث يستهين بكل

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : جـ ٥ ، ص ٩٩

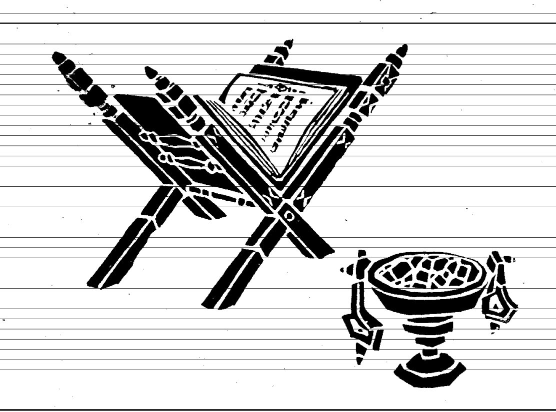
شىء بالمناصب والجاه ، بالملوك والامراء لتكون كلمة الحـــق هى العليا ، وكان عظيم النشـــاط لا يهدأ ولا يستكين للدعة ، بل كان يحب الصراع والانتصار للحق .

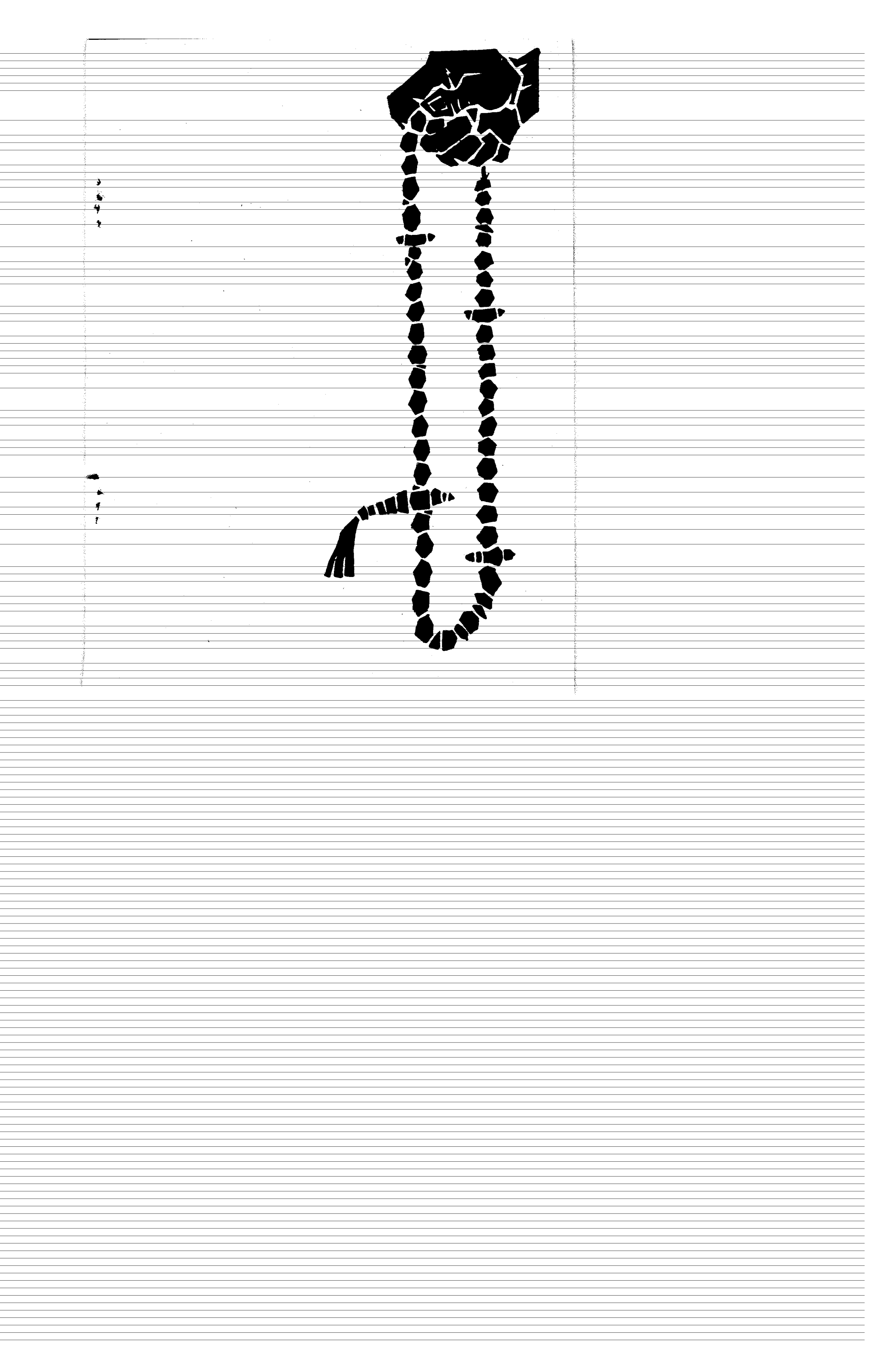
وكان يحب المجتمع الذى يعيش فيه ، ويستهدف اصلاحه ، ويعمــل على نفعه ، ولذلك وجه مواهبه ونشـــــاطه كله الى خدمة ذلك المجتمع على أسس الدين التى درســــها دراسة واعية عميقة وفهمها فهما صــحيحا ، فأحبها وأخلص لهـــــا .



فهـــرس







الكتـــــاب الذهبى
(٩٠) أغسطس ١٩٧٨

رئيس مجلس الادارة
مرسي الشـافعي
العضو المنتدب
لويس جـــريس
رئيسا التحرير
جمـــال كامل ـ مصـــطفى محمود
المشرف الفنى
عباده الزهيرى

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٨/٤٤٨٥

طبع بمطابع مؤسسة روزاليوسف
٨٩ ا ش قصر العينى ـ القاهرة